النظرية اللغوية النسبية بين التراث والدرس اللساني الحديث

(دراسة تأصيلية مقارنة)

دكتور

أحمد إبراهيم محمد بني عطا

أستاذ اللغة والنحو المشارك بقسم اللغة العربية

كلية العلوم الإدارية والإنسانية، جامعة الجوف

المملكة العربية السعودية

ملخص:

هدفت هذه الدراسة إلى الكشف عن مدى العلاقة بين الرؤية التي تطرحها النظرية النسبية اللغوية عند إدوارد سابير وبنيامين وورف، وبين الرؤية التي طرحها العلماء المسلمون في جدليتهم اللغوية الفكرية، وقد وجدنا أن هذه الرؤية للنظرية النسبية اللغوية متناثرة في كتب التراث الإسلامي وبكل عمق ودقة ودراية؛ وعليه جاء هذا البحث ليستنطق بعضا من كتب علمائنا القدماء ببلورة الفكرة فيها بعيداً عن التأويل والتحميل للنصوص العربية القديمة برؤية عقلية عصرية لتراثنا. وعقد هذه المزاوجة بين الرؤيتين ينبني على رصد الأفكار الأساسية والتي تعتبر ذروة النظرية النسبية اللغوية، والبحث عن المقابل لها عند القدماء؛ لأن الفكرة والمادة العلمية واحدة، ولكن الطرق المعبر عنها مختلفة. وبهذا يتجلى التكامل لهذه النظرية من التراث والحداثة.

الكلمات المفتاحية: نسبية، لغة، فكر، تراث، حداثة.

The Theory of Linguistic Relativity between Heritage and Modern Linguistic Studies

Dr Ahmed Ibrahim Mohammed Bani-Atta

Associate Professor of Arabic Language and Syntax at the Department of Arabic Language

College Sciences & Arts, Aljouf University

Kingdom of Saudi Arabia

Abstract

The present study aimed at revealing the relationship between the perspective of the theory of linguistic relativity propounded by Edward Sapir and Benjamin Whorf and the views of Moslem scholar regarding their language and thought dialectic. It has been found out that this perspective of linguistic relativism is sparsely present in the books of Islamic heritage with all the depth, precision and cognizance. This research, therefore, set out to interrogate our ancient scholars, books in order to crystallize this idea therein, without resorting to interpretation and imposition of a contemporary mental perspective upon our heritage. Such a juxtaposition is based on tracing the typical concepts of the theory of linguistic relativity and looking for their equivalents in the ancients, books. That is because the concept and the subject matter are the same although they are expressed is different. Thus, the integration between heritage and modernity is manifest in this theory.

Key words: relativity, language, thought, heritage, modernity

مُقَدِّمَة:

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد سيد الفصحاء، وإمام البلغاء سيدنا محمد وعلى آله الطيبين. وبعد ...

فتتناول هذه الدراسة النظرية التي ترى: "أن مستخدمي أنظمة نحوية واضحة الاختلاف تقودهم نحو أنماط مختلفة من الملاحظة، وتقويم الأحداث الخارجية المماثلة، وعدم المساواة في الملاحظة، بل والوصول إلى رؤى مختلفة للعالم"(١)، يقول ستيوارت تشيز: "إنَّ هذه النظرية واجهت تحدياً كبيراً، وأحدثت تأثيراً واسعاً في الفكر اللغوي والفلسفي والنفسي والاجتماعي"(٢).

ويحاول هذا البحث أن يجلِّي صورة التراث اللغوي الفكري الذي تولدت من خلاله النظرية النسبية اللغوية عند إدوارد سابير وبنيامين وورف، من خلال الآراء التي قدمها بعض العلماء العرب والمسلمين القدماء من نحويين، ومناطقة، وفلاسفة، وعلماء اجتماع، وبلاغيين. فلا يوجد من المتقدمين من ناقش قضية اللفظ والمعنى إلا وتناول بمحاذاتها علاقة اللغة بالفكر. وقد تم الكشف عن مدى الانسجام والتشابه بين الآراء عند القدماء والمحدثين وذلك باستخدام المنهج المقارن، ولم أعمد التطويع والإسقاط في عقد هذه المقارنة، وقدمت أمثلة ونماذج من العربية مقابلة بأمثلة ونماذج من لغات أخرى، لعل

---

(١) Carrol, J: (١٩٥٦) Language, Thought and Reality. Marvin K . Opler, Philosophy and Phenomenological Research p.٢٣.

(٢) Carrol, J:(١٩٥٦) Language, Thought and Reality selected Writings of B .I .Whorf ينظر: تقديم ستيورات تشيز لكتاب

فيه إسهاماً في سبيل الكشف عن منطق العربية في إدراك هذه الظاهرة اللغوية.

وقد دفعني إلى كتابة هذا البحث أنني لم أجد من أفرد له بحثاً خالصاً؛ وذلك لما يعتور هذا البحث من تعقيد وغموض فلسفي عقلي لغوي. وقد قسمت الدراسة إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة: تضمنت المقدمة توضيحا لمشكلة الدراسة، وأهدافها، وأهميتها، وفرضياتها، والدراسات السابقة، والمنهج الذي سارت عليه الدراسة. وتضمن المبحث الأول: النسبية في المفهوم اللغوي والاصطلاحي، ومفهوم النظرية النسبية اللغوية، ورؤيتها وماهيتها عند الغرب، وهوية مفهوم هذه النظرية وأولوياتها في الدرس اللساني العربي، والحتمية اللغوية، وقدرة اللغة على التأثير. أما المبحث الثاني: فتضمن عقد مقارنة تأصيلية بين آراء بعض العلماء العرب القدماء في سبعة علوم (علم النحو، علم اللغة، علم لمنطق، علم البلاغة، علم الفلسفة، علم الاجتماع) تناولت فيها رؤية: أبي سعيد السيرافي، وابن جني، وابن حزم، وعبد القاهر الجرجاني، وأبي حامد الغزالي، وابن خلدون، وإخوان الصفاء في مقابل رؤية إدوارد سابير وبنيامين وورف، مع إبراز نتائج تلك المقارنة.

مشكلة الدراسة:

تتحدد مشكلة الدراسة بالسؤال البحثي التالي:

هل هناك علاقة بين الرؤية التي قدمها العلماء الغربيون حول النظرية النسبية اللغوية تتفق مع الرؤية التي قدمها العلماء العرب القدماء في جدليتهم حول علاقة اللغة بالفكر؟ وينبثق من السؤال الرئيسي الأسئلة الفرعية التالية:

- هل يمكن أن تكون جدلية الفكر واللغة عند العرب أساسا تأصيليا للنظرية النسبية اللغوية؟

- هل يمكن أن تكون جدلية الفكر واللغة عند العرب هي ذروة النظرية النسبية اللغوية؟
- هل يمكن أن نعتبر أن النظرية النسبية اللغوية هي هضم لتلك الجهود عند العرب وإعادة صياغة؟
- هل يمكن أن تكون هوية وأولويات النسبية اللغوية موجودة في الدرس اللساني العربي؟
- ما أهم النتائج التي يمكن أن تحققها هذه الدراسة التي تهدف إلى تأصيل النسبية اللغوية بالجدلية اللغوية الفكرية عند العرب؟

أهداف الدراسة:

- التعرف إلى علاقة اللغة بالفكر والآراء فيها عند القدماء والمحدثين.
- تأصيل النظرية النسبية اللغوية بالجدلية اللغوية الفكرية عند العرب.
- تحديد أوجه التلاقي بين الأسس التي تقوم عليها النظرية النسبية اللغوية والأسس التي تقوم عليها الجدلية الفكرية اللغوية عند العرب.
- استنطاق بعض من مؤلفات العلماء العرب لبلورة الفكرة فيها للوصول إلى حقيقة الرؤية القيمية لتراثنا إذا ما درس بعقلية عصرية.
- تقديم بعض الحلول والمقترحات والتوصيات التي تسهم في تشجيع مثل هذه الدراسات اللغوية؛ للوصول إلى نسبية لغوية عربية وربطها بالتراث.

أهميَّة الدِّراسة:

- توفير مادة علمية تسهم في الكشف عن مدى المقاربة والانسجام بين الدرس اللساني الحديث والفكر اللغوي العربي القديم.
- تقع هذه الدراسة ضمن سلسلة من المحاولات التي تهدف إلى مواجهة الحملات الفكرية اللغوية الغربية والتي تهدف إلى الإسفاف والحط من

الدرس اللغوي العربي؛ بسبب قلة إنتاجية المباحث اللغوية في مثل هذا النوع من الدراسات.

- يمكن أن تدفع هذه الدراسة القائمين على مثل هذه الدراسات إلى البحث عن استراتيجيات جديدة تستنطق كتب علمائنا القدماء ودراستها بعقلية عصرية تنسجم مع الدراسات اللسانية الحديثة.
- إنجاز دراسات لغوية فكرية فلسفية دقيقة للغة تحقق مدى تأثير الدرس اللغوي العربي في طبيعة الدراسات اللغوية الغربية.

فرضيات الدراسة:

هذه الدراسة تحاول الإجابة عن سؤال وهو مدى العلاقة والانسجام بين الرؤية التي قدمها إدوارد سابير وبنيامين وورف حول النظرية النسبية اللغوية والآراء التي قدمها العلماء العرب حول علاقة اللغة بالفكر، حيث تقاسمها العديد من الأطراف، وتسهم فيها الكثير من المظاهر جعلتني أقدم عددا من الفرضيات قد توصلني إلى نتائج قد تجد من يأخذ بها:

الفرضية الأولى: قد يكون هناك علاقة غير جوهرية بين الرؤيتين؛ وهذا لا يقودنا إلى جعل الأول أصلا للثاني.

الفرضية الثانية: قد يكون هناك انسجام في التوقعات بين الرؤيتين، وهذا لا يقودنا إلى جعل الأول أصلا للثاني.

الفرضية الثالثة: قد يحمل بعض آراء الجدلية اللغوية الفكرية أن يصادف واقعا في النظرية النسبية، وهذا لا يقودنا إلى جعل الأول أصلا للثاني.

الفرضية الرابعة: قد تتوافق رؤية الجدلية اللغوية الفكرية مع رؤية النسبية اللغوية إلى حد ما، الأمر الذي يقودنا إلى جعل الرؤية عند العرب أساس الرؤية النظرية النسبية اللغوية.

الفرضية الخامسة: قد تتوافق الجدلية اللغوية الفكرية مع رؤية النظرية النسبية إلى حد كبير دون قصد التأويل والتحميل والتطويع للنصوص، الأمر الذي يقودنا إلى جعل الرؤية عند العرب ذروة النظرية النسبية اللغوية.

الدراسات السابقة:

– قام ثاني بابيو يانا، كلية الآداب والتربية، جامعة ولاية يوتشي، نيجيريا (٢٠١٣م) بدراسة عنوانها: علاقة الفكر واللغة بين اللغويين العرب الأقدمين والدرس اللغوي الحديث، هدفت إلى الكشف عن الرؤية التي تناول فيها العرب القدماء لقضية علاقة اللغة بالفكر ومدى انسجامها مع الرؤية التي يراها العلماء المحدثون، وتوصل إلى نتيجة وهو استخراج المبادئ والمعاني القرآنية الدالة على أصالة الفكر العربي والإسلامي، وأن البلاغة العربية أعظم من كونها قضية لغوية بحتة إنها دلالة على كمال العقل والبصر معا، ومنها الإعجاز اللغوي القرآني.

– قام الدكتور محمد الأوراغي، دار الأمان، الرباط (٢٠١٠م) بدراسة عنوانها: نظرية اللسانيات النسبية، هدفت إلى تقديم نظرية لسانية جديدة للسانيين، وتوصل إلى نتيجة وهي إعادة النظر في الفكر اللغوي العربي القديم، وبناؤه بشروط التفكير العلمي المعاصر.

– قام الدكتور محمد كتاني، المغرب (٢٠١٠م) بدراسة عنوانها: إشكالية اللغة والفكر، هدفت إلى الكشف عن حقيقة اللغة وأنها ليست لمجرد التعبير عن الأفكار، بل هي جزء لا يتجزأ من عملية التفكير ذاتها، وتوصل إلى نتيجة أن اللغات تتفاضل؛ لأن التفكير يفرض ذلك. فإذا كان التفكير يتفاوت في عمقه وفي قوته، فلا محالة أن تكون اللغة متطابقة مع مداركه.

– قام الدكتور محيي الدين محسب، قسم علم اللغة والدراسات السامية والشرقية، جامعة المنيا (١٩٩٧م) بدراسة عنوانها: النظرية النسبية اللغوية بين الفرضية والتحقق، وتوصل فيها إلى الكشف عن الأسس الفكرية والاستدلالات اللغوية التي قامت عليها النظرية، والنتائج التي أسفرت عنها، والنقد الموجه إليها، والتعديلات المقترحة عليها.

– قام الدكتور أحمد عبد الرحمن حماد، جامعة الإمارات العربية (١٩٨٥م)، بدراسة عنوانها: العلاقة اللزومية بين الفكر واللغة، وتوصل إلى نتيجة أن اللغة والفكر وجهان لعملة واحدة فلا بد للفكر من لغة يعبر بها الإنسان عن أفكاره ورغباته، ولا بد للغة من فكر حتى يطورها ويسمو بها.

وبعد سرد هذه الدراسات نجد أنها خرجت بمجموعة من النتائج ينحصر جلها في الكشف عن حقيقة اللغة والعلاقة اللزومية بينها وبين الفكر، ولم تتناول الرؤية التي تقوم عليها النظرية النسبية اللغوية بالدراسة المقارنة التأصيلية، وذلك بعرضها على الفكر العربي والإسلامي القديم، وقد ركزت في أكثر محاورها على بيان علاقة اللغة بالفكر بجميع محاورها. وانحصرت مهمتها في رفد الإطار النظري والتطبيقي للنظرية النسبية اللغوية، وشكلت قاعدة انطلاق للدراسة الحالية؛ وعليه جاءت هذه الدراسة لتثير تساؤلا حول إذا كان هناك علاقة بين الرؤية التي قدمها العلماء الغربيون في النظرية النسبية اللغوية تتفق مع الرؤية التي قدمها العلماء العرب القدماء في جدليتهم حول علاقة اللغة بالفكر.

منهج الدراسة:

تناولت الدراسة الأفكار التي تسير عليها النظرية النسبية اللغوية وفقا للرؤية التي يراها العلماء المحدثون ومقارنتها بالرؤية عند العلماء العرب

القدماء من خلال استنطاق مؤلفاتهم، بالاعتماد على المنهج المقارن؛ لأنه المنهج الأنسب لمثل هذا النوع من الدراسات من حيث ملاءمته لطبيعة المشكلة وموضوع الدراسة التي تتعلق باللغة والفكر، ولأن المنهج المقارن مرتبط بدراسة المشكلات المتعلقة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية.

المبحث الأول
النظرية اللغوية النسبية بين النظرية والهوية

أولا: النسبية في المفهوم اللغوي:

النّسبية – بكسر النون وسكون السين – مصدر صناعي بمعنى النسبة، والنسبة تأتي في اللغة بمعنى القرابة والصلة، ومنه النسب، تقول العرب: هذا نسيبي؛ أي قريبي، وتقول: القريب من تقرب لا من تنسب، وتأتي النسبة في اللغة بمعنى العزو والإضافة، تقول: نسبه إلى كذا أي عزاه، وانتسب إلى أبيه أي اعتزي إليه، ويقال: بالنسبة إلى كذا أي بالإضافة إليه [١]. وقال الراغب الأصفهاني: وتستعمل النسبة في مقدارين متجانسين بعض التجانس، يختص كل واحد منها بالآخر [٢]. قلت: ومنه المناسبة، وهي المشاكلة بين الشيئين.

وتأتي النسبة بمعنى المقدار، وهو استعمال لغوي أجازه مجمع اللغة العربية بالقاهرة، فيقال: يضاف هذا إلى هذا بنسبة كذا؛ أي بمقدار كذا [٣]. وأقرب هذه المعاني اللغوية للمعنى الاصطلاحي المقصود هو الإضافة، فالدلالة النسبية هي الدلالة الإضافية والاعتبارية.

---

(١) الزبيدي، محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، الرياض، دار الهداية، (د. ط) (د. ت)، ٤/٢٦٠_ ٢٦٥/ الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ١٢/١٣.

(٢) الأصفهاني، أبو القاسم، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن الكريم، تحقيق: محمد الكيلاني، مراجعة: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، ط٥، ٢٠٠٧م، ص ٨٠١.

(٣) مجمع اللغة العربية بالقاهرة(٢٠٠٤م) المعجم الوسيط، ط٤، مكتبة الشروق الدولية، ٢/ ٩١٦.

ثانيا: النسبية في المفهوم الاصطلاحي:

تطلق النسبية في الاصطلاح على معان عدة منها: الصفة الإضافية التي تختلف بحسب المتعلقات والأمور الخارجية، وذلك مثل: الكثرة والقلة، والكبر والصغر، والظهور والخفاء، والسرعة والبطء، والقدم والجدة، والأولية والآخرية، والتطويل والتخفيف، والقرب والبعد [١]. الكلب يوصف بالقوة إذا قابلناه بالغزال، ولكنه يوصف بالضعف إذا قابلناه بالأسد، وقد يكون العمل مقبولا من رجل ولا يكون مقبولا من آخر كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين. وأجاز بعض العلماء أن يقال: سائر الذنوب بالنسبة إلى الكفر صغائر، فإن نسب الذنب إلى ما فوقه فهو صغيرة، وان نسب إلى ما دونه فهو كبيرة [٢].

والكمال والنقص من الصفات النسبية، فبعض الصفات كمال في الخالق، لكنها نقص في المخلوق، مثل: التعالي والتكبر، والثناء على النفس [٣]. فإذا قال العلماء: هذا الشيء من الأمور النسبية والإضافية، فإنهم يعنون أنه غير

(١) ينظر: الجرجاني، علي بن محمد بن علي، التعريفات، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥ه ، ص١٦٣، ٢٤١. السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر (٢٠١٠م) الشمائل الشريفة، دار طائر العلم، تحقيق: حسن عبيد باحبيشي، ٣٩/١.

(٢) العيني، أبو محمد، محمود بن أحمد، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي- بيروت (د.ت)٢٠٥/١.

(٣) ابن تيمية، أبو العباس، أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٩٩٥م، ص ١٣٦-١٣٩.

مطرد، ولكنه يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال والأماكن وسائر المتعلقات[١]

والمسائل النسبية هي المسائل التي لا يطلق القول فيها بحكم واحد، بل تراعى فيها النسب والإضافات، فيختلف الحكم باختلافها: كالصوم للمجاهد الذي يضعفه الصوم عن الجهاد مذموم، وبالنسبة لمن لا يضعفه الصوم ممدوح [٢]. والأفضل في صلاة الفريضة أداؤها في المسجد بالنسبة للرجل، وفي البيت بالنسبة للمرأة، وهكذا.

وقد ذكر علماء المنطق في مبحث الكلي والجزئي: أن كل جنس ونوع هو كلي لما تحته، وجزئي لما فوقه، ويطلقون الجزئي على كل ما هو أخص تحت ما هو أعم منه: كالإنسان بالنسبة إلى الحيوان، ويسمونه الجزئي الإضافي؛ لأن جزئيته بالإضافة إلى شيء آخر، وكذلك الكلي قد يكون إضافيا كالحيوان بالنسبة للإنسان، ولكنه جزئي بالنسبة لما فوقه كالشيء [٣]. وتقابلها؛ أي الصفة النسبية – الصفة الحقيقية والذاتية، وهي الصفات الثابتة والقائمة بذات الموصوف، ولا تعلق لها بالأشياء الخارجية كالسواد والبياض، والصلابة والسيولة، والحرارة والبرودة[٤].

(١) المرجع نفسه، ٩/ ٨٧.

(٢) الشافعي، ابن حجر، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة– بيروت،١٣٧٩ه، ٦/ ٤٨.

(٣) الكاتبي، نجم الدين علي القزويني(١٤٢٦ه) تحرير القواعد المنطقية في شرح الرسالة الشمسية، دار بيدار، قم _ إيران، ص٦٩.

(٤) الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، روح المعاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ، ٧/ ٨٣.

وهذه المعاني تتوافق مع أسس هذه النظرية؛ فالنسبية في زمن الأفعال مثلاً تعني: أن القيم الدلالية الزمنية في الصيغ الفعلية غير ثابتة وغير حقيقية، تختلف قيمها الزمنية باختلاف رؤى الأفراد وتصوراتهم الفكرية، ولها دلالات ومقاييس مختلفة لدى الأفراد، فإطلاق النسبية في فهم تلك الصيغ يقيس الواقع ويؤكد عليه. ولكن المراد في النظرية هو عدم وجود قيمة دلالية زمنية واحدة في صيغة من الصيغ الفعلية في واقع الأمر، وهذا ما تراه النظرية النسبية، ولذا كالمرآة التي تعكس صورة الناظر فيها، كما سيأتي.

ثالثاً: مفهوم النظرية اللغوية النسبية:

تنسب هذه النظرية إلى عالم الاجتماع الأمريكي بنيامين وورف (Whorf) (١٨٩٧م _ ١٩٤١م). وقد عرَّف وورف النظرية النسبية اللغوية بأن "مستخدمي أنظمة نحوية واضحة الاختلاف تقودهم نحو أنماط مختلفة من الملاحظة، وتقويم الأحداث الخارجية المماثلة، وعدم المساواة في الملاحظة، بل والوصول إلى رؤى مختلفة للعالم بدرجة ما".(١)

ويمكن توضيح هذا المفهوم من جانبين: الجانب الأول أن حدود تفكير أي مجتمع من المجتمعات محصور في لغته، ولا يمكن أن يتعداها؛ فاللغة هي التي تصنع الفكر لجماعة ما، ولولاها لبقيت تلك الجماعة حبيسة أفكارها، والأفراد لا ينشأ لديهم أي تصورات عن العالم الذي يعيشون فيه إلا من خلال لغتهم، ولا ينمو التفكير لديهم إلا من خلال تلك اللغة، أما الجانب الثاني لهذه

(١) Carrol, J: Language, Thought and Realit. [REVIEW]Marvin K. Opler, Philosophy and Phenomenological Research ١٧:٤١٤,١٩٥٦. p.٢٣.

النظرية، فهو يرى أن المتحدثين باللغات المختلفة لديهم إدراكات وتصورات مختلفة عن العالم، وهو الجانب الذي تناولته بالبحث والدراسة.

رابعاً: رؤية الفرضية اللغوية النسبية:

تتجلى رؤية هذه الفرضية في أنها تقيد تطور الفكر الإنساني بطبيعة النشاط اللغوي الذي يمارسه الإنسان. فاللغة منظومة ذهنية، ومنظومة الأفكار ما هي إلا منظومة اللغة، وهي التي تنتج الفكر، واختلاف اللغات لا يعني مجرد اختلاف في النظام النحوي التركيبي فقط، وإنما يعني اختلاف أنظمة ذهنية كذلك؛ ولهذا تختلف تصورات الإنسان عن العالم الخارجي، تبعا لاختلاف اللغات، واللغة تصنيف وترتيب لتيار التجربة العملية التي ينتجها نظام مجتمع معين، والناس يؤدون المواقف بطريقة تشبه الطريقة التي يتكلمون بها عن هذه المواقف.

إن المفاهيم تختلف باختلاف اللغات؛ فما يفهمه العربي مثلاً عن الزمن هو ما تقدمه له العربية من مفردات وطرائق تركيبية ودلالات ثقافية حول المفهوم، في حين يختلف الإنجليزي عنه في المفهوم؛ ذلك أن تجسيد فكرة الزمن ناتج عن تفاوت في التصورات التي تطرحها الأنماط الثقافية حول الكون والحياة ورؤيتهم لها، ما جعل العربي يعبر عن الحدث الذي تم من خلال الماضي بصيغة واحدة بغض النظر عن ساعة وقوعه قبل يوم أو يومين، في حين أن الإنجليزي يعبر عن الزمن الماضي بصيغ ثلاث وهي: الماضي البسيط، والماضي التام، والماضي المستمر، وهذا، راجع إلى اختلاف رؤية العالم للأشياء لاختلاف اللغات.

درس بنيامين وورف من ستين إلى سبعين لغة من لغات الهنود الحمر، فرأى أن كل لغة من هذه اللغات تحمل رؤية مختلفة عن العالم الخارجي، ومن

ذلك لغة (الوشرم)، حيث وجد فيها أربع صيغ للدلالة على الزمن الماضي، على العكس من العربية مثلا التي تعتمد صيغة واحدة، وعثر على لغة أخرى من لغات الهنود الحمر تسمى لغة (النتكة) ورأى أنهم يعبرون عن أفكارهم وتصوراتهم اتجاه عالمهم الخارجي بالصيغ الفعلية فقط، ولا يوجد عندهم صيغ اسمية، بينما في اللغة العربية يتضح تصورنا عن العالم بصيغ: الفعل، والاسم، والحرف.

واللغة الإنجليزية غير مميزة لعلاقات القرابة فهي تترجم كلمة uncle إلى أربع كلمات في العربية، هي العم، والخال، وزوج العمة، وزوج الخالة، ومثلها كلمة aunt التي تترجم إلى العمة، والخالة، وزوجة العم، وزوجة الخال. أما كلمة cousin فتترجم إلى ثماني كلمات هي: ابن العم وابن العمة وابن الخال وابن الخالة، وبنت العم وبنت الخال وبنت العمة وبنت الخالة(١).

ومن أوجه الاختلاف بين اللغات استخدام ضمائر الخطاب. فالضمير you في الإنجليزية يقابل: أنتَ، أنتِ، أنتما، أنتم، أنتن، فهي لا تفرق في النوع.

ومن الأمثلة الأخرى للاختلاف بين اللغات، والذي قد يؤدي إلى بعض الصعوبات في التواصل والتفاهم، ما يعانيه اليابانيون عندما يزورون فرنسا، مثلا، إذ إن اليابانيين يضعون الفعل في نهاية الجملة، ولذا لابد من الاستماع للمتحدث حتى النهاية لفهم ما يريد قوله. أما الفرنسيون فيضعون الفعل بعد الاسم مباشرة في الجملة، ويفهم المستمع معنى الجملة بسرعة، وقد لا يتورع لهذا السبب عن مقاطعة محدثه. بالإضافة إلى ذلك فإن الياباني عندما يرد على سؤال يبدأ بتقديم مختلف الآراء قبل أن يختم بتقديم رأيه الخاص. فإذا كان

(١) ينظر: جرين، جوديث، التفكير واللغة، ترجمة: عبد الرحيم جبر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م، ص١٠٤.

الياباني لا يجيد الفرنسية فإن الفرنسي قد يقاطعه بسرعة معتقدا أنه يساعده بذلك. وتكون النتيجة أن يشعر الياباني بالإحباط لأنه قدَّم رأيا غير رأيه، كما يشعر بالتوتر؛ لأنه لم يجد الوقت الكافي للتعبير عن نفسه، أو حتى فهم ما يقوله الفرنسي (١).

ويقدم لنا وورف أمثلة لدعم وجهة نظره القائلة بأن اللغة التي يتحدثها المرء تقوده إلى إدراك العالم بطرق مختلفة تماما. ومن الأمثلة التي يقدمها المثال المتعلق بالهنود الهوبي Hopi Indians الذين يستخدمون كلمة واحدة للإشارة إلى الحشرة والطائر والطيار، ويستخدم الأسكيمو العديد من الكلمات المختلفة للأنواع المختلفة من ندف الثلج. في كل هذه الحالات يكون السؤال هو ما إذا كان الأسكيمو "يرى" بالفعل أنواعا أكثر من ندف الثلج، وما إذا كان الهوبي لا يستطيع أن يرى أي اختلاف بين النحلة والطيار والطائرة (٢).

ويستمر وورف بتقديم تلك الأفكار التي نادى بها في رؤية العالم كنتيجة للطريقة التي يتم بها التعبير عن علاقات المعنى من خلال قواعد النحو في اللغة. فإننا نظن أنه من الطبيعي القول "عشرة أيام" بنفس الطريقة التي نقول بها" عشرة رجال" رغم أننا لا نلمس بالتجربة اللحظية "عشرة أيام" وبدلا من أن يتحدث الهوبي على نمطية القول المعتاد " مكثت خمسة أيام" نجد أنهم يقولون" مكثت حتى اليوم السادس"(٣).

إننا نرى العالم باللغة، إننا نرى الظاهرة نفسها بشكل مختلف. وأقرب مثال على ذلك فكرة الألوان فلو أحضرنا خمسة رجال وخمس نساء، ووضعنا

(١) ينظر: اللغة العربية والفكر، ارتباط اللغة بالفكر، جريدة الأهرام المصرية، ١٩٩٢/١٢/٢٤م، ص١٧.

(٢) ينظر: جرين، التفكير واللغة، ص١١٦_ ١١٧.

(٣) ينظر: المرجع نفسه، ص١١٨.

أمامهم مجموعة من الألوان، وطلبنا منهم أن يسموا الألوان الموجودة لوجدنا أن الرجال سيكتفون بذكر الألوان السبعة الأساسية، أما النساء، ففي حقيقة الأمر، سيصفن الكثير من الألوان بين الألوان الأساسية.

إن المتحدث بالعربية، وفق نظامها النحوي، يقول مثلا: الكرة أمام الحائط، بينما في لغة الهاوس غرب إفريقيا في نيجيريا إذا أراد أن يوصل المفهوم نفسه فإنه يقول الكرة خلف الحائط، هكذا يراها ويعبر عنها وفق رؤيته لها، وطريقة الوصف عندهم هكذا.

وقد رصد بعض الباحثين ظاهرة علمية قام بها باحثان: أحدهما ألماني، والآخر إنجليزي، وكانت مهمتهما البحث عن الجين المسبب لأحد الأمراض عند الحيوانات، وتجدر الإشارة إلى أن الألماني، في لغته، لا يفرق بين الأقدام الأمامية والخلفية، بينما الإنجليزية تفرق في ذلك، فعثر الإنجليزي على جينين مسببين للمرض، أحدهما وجد في الأقدام الأمامية، والآخر في الأقدام الخلفية، بينما الألماني لم يتوصل إلا إلى جين واحد؛ لأنه اكتفى بتناول الأقدام الأمامية أو الخلفية في التحليل والفحص المخبري؛ وهذا مرده أن الألماني لم يفرق بين الأقدام الأمامية والخلفية.

خامساَ: هوية مفهوم النظرية اللغوية النسبية وأولوياتها في الدرس اللساني العربي:

لو اطلعنا على الأفكار التي تسير عليها النظرية النسبية اللغوية وفقا للرؤية التي يراها العلماء المحدثون، ولو رجعنا إلى كتب التراث الإسلامي لوجدنا هذه الرؤية متناثرة فيها. ويتضح هوية مفهوم هذه النظرية عند ابن جني في الخصائص في معرض حديثه عن تعريف اللغة، فقد عرَّفها بقوله: "حد اللغة

أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم". [١] وهذا التحديد لمفهوم اللغة يتوافق، إلى حد كبير، مع مفهوم النظرية النسبية، ويتأكد من جانبين: الأول، وهو الجانب الصوتي؛ أي الرموز اللغوية الذهنية، والجانب الآخر يتحدد في الوظيفة الأساسية للغة، وهي التعبير عن أغراض كل قوم من الأقوام ورغباتهم، وذلك بنقل رؤيتهم التي يرون فيها عالمهم الخارجي ضمن إطار البيئة والمجتمع. فاللغة تختلف من مجتمع لآخر، وهذا يعني اختلاف في طريقة التفكير.

وقدم الفلاسفة المسلمون لمفهوم اللغة والفكر، انطلاقا من موقف إبستمولوجي؛ بمعنى أنهم ينطلقون من تصور شامل للوجود، يضعون الإنسان في حيز منه كما يوضع جهاز داخل نظام معين، ثم يعتبرون وجود الإنسان الوظيفي مرتهنا بالموضع الذي يحتله، وبالنظام الشامل الذي يحيط به. وبالهدف الأسمى الذي وجد من أجله. وينص القرآن على هذه الحقيقة: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ الرحمن:٣،٤ وينص على حقيقة أخرى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ البقرة: ٣١ يكون قد حدد المجال الذي على الفكر أن يتحرك لملئه [٢].

فالإنسان عند الجاحظ كما هو عند، فخر الدين الرازي، كائن يعي وجوده، ووعيه للوجود فكر ليس بالضرورة أن يكون فكرا ناطقا. فاللغة لدى الإنسان اقتضاء وجودي. وبهذا المنحى من التفكير يكون الإنسان قد وهب الفكر واللغة

(١) ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، مصر، دار الكتب العلمية، ١٩٥٢م، ٣٣/١.

(٢) ينظر: كتاني، محمد، إشكالية اللغة والفكر، المملكة المغربية، وزارة الثقافة والاتصال، ٢٠١٠م، الشبكة العنكبوتية، الرابط: http://www.minculture.gov.ma.

معا، لا أسبقية لأحدهما على الآخر، أما ابن حزم فقد أنزل الظاهرة اللغوية منزلة الباعث على التئام البشر مع مقتضيات الطبيعة والكون جملة [١].

وتتضح رؤية اللغة والفكر، كما حددها الفلاسفة المسلمون، وذلك أن اللغة والفكر قوة ذهنية كامنة متلازمة عند الإنسان مرتبطة بوجوده، ملهمة من الله عز وجل، والإنسان جزء لا ينفك عن عالمه الخارجي، وهذا العالم، بكل مكوناته، هو عبارة عن مجموعة من المثيرات للفكر تعمل على تحريره من حالة الفكر الكامن إلى حالة الفكر الفاعل، فتتشكل عند الإنسان رؤى وتصورات فاعلة عن محيطه وعالمه الخارجي، تقوم هذه الرؤى والتصورات بدور مثير جديد للغة الكامنة، فتتحول اللغة من حالة الكمون إلى حالة الفاعلية، حيث تتلاءم وتتفاعل وفق نظام معين مع الرؤى والتصورات عن عالم ذلك الشخص، لتصبح بدورها لغة ناطقة. ويمكن بيان ذلك في الخطاطة التالية:

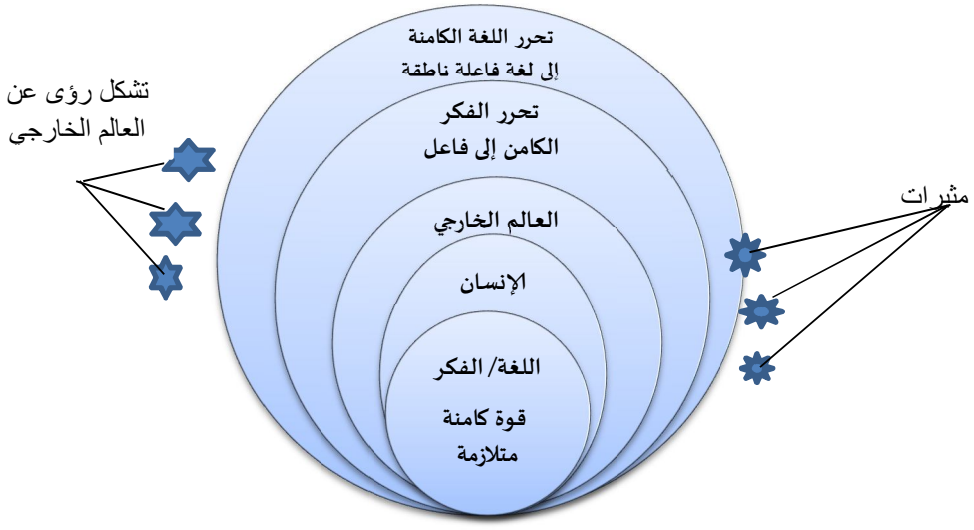

(١) ينظر: المرجع نفسه.

سادساً: الحتمية اللغوية، وقدرة اللغة على التأثير:

تعد فرضية الحتمية اللغوية Linguistic Determinism من النظريات اللغوية الفكرية التي تناولها الدرس اللساني الحديث بالبحث والدراسة، وقد أثارت ردود فعل وجدلا في الأوساط اللغوية والفلسفية العربية والغربية. وتقوم على أساس أن العلاقة بين اللغة والفكر ترتكز على دور اللغة في تأطير وتشكيل الفكر أو عملية التفكير؛ فلا تفكير بدون لغة.

وتمثل الفرضية الحتمية اللغوية الجانب المتطرف لفرضية النسبية اللغوية، أما الجانب المعتدل لهذه الفرضية فيقوم على أساس أن للغة دورا ما في عملية التفكير أو المعرفة. أما الجانب المتطرف فيقوم على أساس أن اللغة هي الوعاء الذي يتشكل فيه الفكر، وأن هناك علاقة عضوية بين اللغة والفكر [١].

ويرجع تاريخ فرضية الحتمية اللغوية، بشكل عام، إلى كتابات المفكر الأمريكي بنيامين وورف، ويطرح وجهة نظره في موضوع العلاقة بين الفكر واللغة على النحو التالي: "إن النظام اللغوي (النحو) لكل لغة ليس مجرد أداة تستخدم لإعادة بناء التعبير عن الأفكار، بل إنه البرنامج، والمشكل للأفكار ، والمرشد للنشاط الذهني للفرد، ولتحليل انطباعاته ولتركيب المخزون الذهني للفرد... إن صياغة الأفكار ليست عملية مستقلة، هي عملية عقلية بالمعنى القديم ،بل جزء من نحو معين، تتباين بصورة بسيطة أو كبيرة بين الأنحاء المختلفة"[٢]؛ وتدعي أن بناء اللغة يضع قيوداً أو شروطا على تمثيلات اللغة، وأن اللغة تشكل الفكر والإدراك.

---

(١) ينظر: حمد، عبد الرحمن حامد، الفرضية الحتمية اللغوية واللغة العربية، مجلة عالم الفكر، مج٢٨، ع٣، ٢٠٠٠م، ص١.

(٢) ينظر: المرجع نفسه، ص١١.

وقد تعرض الدارسون من علماء العربية لهذا الجانب المتطرف من النظرية بالبحث والدراسة، للرد على ما تحمله النظرية من أفكار. فإذا تم التسليم بها تقود إلى الانتقاص والحط من الفكر العربي والحضارة الإسلامية، والسؤال المطروح وهو السؤال الأكثر تداولا بين العلماء والفلاسفة، هل يمكن أن نفكر بدون لغة؟

يقول ألبرت أينشتاين Albert Einstein مكتشف النظرية النسبية الخاصة، والتي قامت عليها النظرية النسبية اللغوية إنَّ "كلمات اللغة، كما هي مكتوبة أو منطوقة، لا يبدو أنها تقوم بأي دور في آلية التفكير الخاصة بي"(١) ويتحدث عن علامات أو إشارات معينة وصور واضحة أو غير واضحة يمكن فيما بعد إعادة صياغتها والربط بينها بوصفها عناصر تفكيره.

كما يذكر بعض الموسيقيين أنه بإمكانهم "الاستماع" إلى الموسيقى التي يقومون بتأليفها، وذك قبل أن يعزفوها على إحدى الآلات الموسيقية، بل وقبل أن يكتبوها على الورق. ويمكننا أن نطلق على هذا النوع من النشاط الذهني تفكيرا غير لغوي أو قبل لغوي. ولعل هذا النوع من التفكير هو الذي مكنَّ الموسيقي بيتهوفن من الاستمرار في التأليف الموسيقي بعد إصابته بالصمم في أواخر حياته (٢).

ويشير فيرث Firth في كتابه (التفكير بدون لغة: الدلالات النفسية للصمم) الصادر سنة ١٩٦٦م إلى أن الأطفال الصم لا يختلفون اختلافا كبيرا عن

(١) Dan I. Slobin, Psycholinguistics, Glenview, Illinois: Scott Foresman and Co.١٩٦١, p١٠٠.

(٢) John B. Carroll, Language and Thought, Englewood Cliffs, New Jersey: Prentice Hall Inc. ١٩٦٤, p. ٧٦.

الأطفال العاديين في أدائهم الذهني، وأن نموهم الذهني يتبع في كلتا الحالتين المراحل الأساسية نفسها، بالرغم من أنه في بعض الحالات قد يكون معدل النمو أبطأ بالنسبة للصم. ولكن من المحتمل أن هذا البطء قد يرجع ليس إلى نقص اللغة بقدر ما يرجع إلى نقص عام في الخبرة إزاء نوع البيئة أو الظروف التي ينمو فيها كثير من الأطفال الصم. وقد توصل فيرث إلى نتائج مشابهة فيما يتعلق بالصم البالغين. (١)

ويشير اللغوي الأمريكي Langacker إلى أنَّ أنْواعاً معينة من الفكر يمكن أنْ تحدث مستقلة تماماً عن اللغة. ومن الأدلة على ذلك الرغبة في التعبير عن فكرة ما، مع عدم القدرة على صوغها في كلمات. (ويشبه هذا محاولتنا تذكر اسم شخص نعرفه). فلو كان التفكير مستحيلا بدون لغة لما ظهرت هذه المشكلة أبدا. (٢)

ومن خلال ما سبق، يتضح أن هذه النظرية في جانبها المتطرف قد تصدى لها العديد من العلماء، وعلى وجه الخصوص العلماء الغربيين، مثبتين غير ما قال به وورف من أن اللغة هي المهيمنة والمسيطرة على الفكر.

وعليه يمكن القول: إنَّ الإنسان يمكن أنْ يفكر بدون لغة، فالطفل يبدأ نشاطه الفكري في ساعات ولادته الأولى حين يبدأ بالبكاء والصراخ، بمجرد انتقاله إلى عالمه الجديد، حالةٌ يكون فيها الفكر عنده كامن، وتلك الصرخات والانفعالات في حقيقتها ما هي إلا استجابة للمثيرات الصادرة من محيطه،

---

(١) Dan I. Slobin, Psycholinguistics, Glenview, Illinois: Scott Foresman and Co.١٩٦١, p١١٧.

(٢) Ronald W. Langacker, Language and its Structure, San Diego, Publishers, Second Edition, ١٩٧٣, p. ٣٦.

تقوم بتحرير فكره ونقله من حالة الفكر الكامن إلى حالة الفكر الفاعل، وفي هذه الحالة يتشكل عنده تصورات ورؤى أولية عن عالمه الخارجي، أطلق على هذه الرؤى (الفكر الفاعل)، يعمل هذا الفكر بدوره على تحرير اللغة الكامنة عند الطفل. وبعد فترة قصيرة قد لا تتعدى الثلاثة شهور يبدأ الطفل بإصدار أصوات على هيئة مقاطع لا ترقى إلى اللغة، استجابة طبيعية لعالمه. وبناء على هذا لا يمكن القول: إن اللغة هي المسيطرة على الفكر بل إن فكرة أن الفكر قوة مؤثرة في اللغة تعمل على تحريرها من حالة اللغة الكامنة إلى حالة اللغة الفاعلة أقرب إلى القول بسيطرة الفكر على اللغة.

المبحث الثاني
النظرية اللغوية النسبية مقاربة بين التراث والحداثة

ولنبدأ بالكشف عن أوجه الانسجام بين الرؤية الفكرية اللغوية في التراث الإسلامي والرؤية التي قدمها إدوارد سابير وبنيامين وورف، وبيان هذه الرؤى في متون العلوم المختلفة عند قدماء العلماء العرب والمسلمين، كعلم النحو، حيث كان رائد هذه الرؤية في الكشف عن العلاقة بين اللغة والفكر أبو سعيد السيرافي، وفي علم اللغة، ابن جني، وعلم المنطق ابن حزم، وعلم البلاغة عبد القاهر الجرجاني، وعلم الاجتماع ابن خلدون، وعلم الفلسفة أبو حامد الغزالي، وإخوان الصفاء. والغاية من ذلك الوصول إلى رؤية واضحة جلية ليس مبعثها الانطباعات الشخصية والتصور الذاتي، بل بالوقوف على ركائز تكشف عن مدى المقاربة والتوافق بين النصوص من خلال أوجه المقابلة والمقارنة بين الدرسين اللغويين الحديث والقديم في هذا الجانب من الدراسة، ولكي نتبين من خلال هذه الومضات العلمية أن ماضي العلوم الإسلامية والعربية يضئ أشكال البحث اللساني في حاضرنا.

أولاً: مجال علم النحو: الرؤية اللغوية النسبية عند أبي سعيد السيرافي (٢٨٠هـ _ ٣٦٨هـ)

ومن خلال تلك المناظرة الشهيرة بين النحوي: أبي سعيد السيرافي (ت ٣٦٨ه) والمنطقي: أبي سعيد متى بن يونس. نرصد توجهات أبي سعيد السيرافي، فهو يدرك ارتباط المنطق اليوناني الأرسطي باللغة التي أنتج بها، فـ "المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها، وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها، فمن أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه – المنطق _ ويتخذوه قاضيا وحكما لهم وعليهم"[(١)].

(١) التوحيدي، أبو حيان، علي بن محمد بن العباس، الإمتاع والمؤانسة، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٤ه، ١/١١٠.

ويتضح من خلال تلك المناظرة أن الفكرة الأساسية التي تقوم عليها النسبية تبدو جلية عند السيرافي، فهو يقدمها دون استطراد وشروحات مغرقة في ضرب الأمثلة التي عهدناها عند بنيامين وورف، بل استطاع هذا العالم الفذ أن يلخص هذه الرؤية في المثال الذي قدمه عن لغة يونان في مناظرته مع متى بن يونس.

ففي قوله: "المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها" يعني: أن المنطق عند يونان يختلف كليا عن المنطق عند غيرهم، فقد صيغ بلغتهم، لغة تعكس فكر يونان، والطريقة التي يفكر بها، ورؤيتهم الخاصة ومنطقهم الخاص بهم. واختلاف اللغة لا يعني اختلافا في النظام النحوي والتركيبي فقط، بقدر ما هو اختلاف في الأنظمة الذهنية، والتصورات والرؤى التي يرى فيها يونان، أنه يرى بلغته، ويفكر بلغته، ويصوغ بلغته.

أما قوله: "واصطلاحهم عليها، وما يتعارفونه بها" فاللغة عند السيرافي: اتفاق اصطلاحي عرفي بمفهومها العام والشامل، وهذا الاتفاق صورة حتمية للواقع، شكل آخر للواقع، إنه الصورة الرمزية، والتصور الذهني له. ومن هنا فالرؤية للواقع ليست واحدة عند الجميع، إنها متفاوتة بتفاوت اللغات. فيونان اصطلح لغة توافق واقعه، وتعكس نظرته له، لغة تصور لهم عالمهم الخاص بهم العالم الذي نراه ولكن برؤية مختلفة عن رؤيتهم، ومن هنا جاءت لغتهم في رسومها وصفاتها ونظامها النحوي لتعكس رؤية جديدة للعالم الذي نراه، إنهم يرون في مفرداتهم العالم الرؤية التي لا نراها؛ إنها اللغة بـ "رسومها وصفاتها"[1] ونظامها النحوي، فهي ليست مجرد اختلاف في هذه الأنظمة، بقدر ما يعني اختلاف في التصور الذهني والرؤى الفكرية.

(١) المرجع نفسه، ١/١١٠.

وقوله: "فمن أين يلزم الترك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه – المنطق _ ويتخذوه قاضيا وحكما لهم وعليهم". إن اللغة التي يستخدمها يونان وتصور واقعهم، محملة بثقافتهم وأعرافهم، ولهذا كيف لشعب من الشعوب كالعرب وغيرهم أن تمثلوها ويتحاكموا إليها، فتصبح ثقافة لهم ومنهجا يقصدونه، فهذا من المحال، حتى ولو تكلموا لغة يونان؛ لأنها لا تنتظم عند العربي كانتظامها الذهني عند أبنائها، والعربي لا يدرك العادات اللغوية التي ترافقها كما يدركها أبناؤها.

إن العادات اللغوية التي ترافق لغة ما تمثل تصورات عالم مختلف كليا عن العالم الذي تمثله لغة أخرى في عاداتها اللغوية. وكذلك إذا افترضنا أنّ " آينشتاين كان صينيا، أو كان من الأسكيمو، أو من الهوبين فإنه، من خلال عاداته اللغوية، كان سيكشف تصورات رياضية مختلفة كليا ليفهم بها الواقع".(١)

فمن هنا يرى أبو سعيد السيرافي أن لغة يونان تمثل تصورهم لعالمهم وواقعهم من خلال عاداتهم اللغوية الخاصة بهم، فلا يمكن أن يكون العرب قد أخذوا علم المنطق من يونان، فلهم منطقهم وللعرب منطقهم، فالعادات اللغوية التي ترافق المنطق اليوناني، لا شك أنها تبتعد كليا عن فهم العربي؛ ومن هنا فاليوناني يقدم تصورا مختلفا كليا عن الفهم الذي يمكن أن يقدمه العربي عن المنطق، فهو يفهم منطقه بطريقة تختلف عن فهم العربي، والعربي يقدم وفق عاداته اللغوية تصورا آخر للمنطق يتوافق وعالمه الخاص به. وعليه لا يمكن القول: بأن العرب أخذوا المنطق من اليونان، "فالمنطق الأرسطي – وفق ما تؤديه عبارة السيرافي – ابن نظامه اللغوي، ولو أن هذا المنطق وضع أو

(١) Bertalanfly: General System Theory, ١٩٦٨, p٢١٨..

نشأ في نظام لغوي آخر لكان من الممكن أن تتغير صورة قوانينه [١]. ومن هنا بدت الدعوة إلى تعلم المنطق اليوناني، والاحتكام إلى قوانينه- في نظر السيرافي- دعوة إلى تعلم اليونانية، والاحتكام إلى أغراضها المعقولة؛ أي إلى رؤيتها الخاصة للعالم والتفكير بالصورة التي يفكر فيها اليوناني، وهي دعوة لا تستند إلا إلى تحكم محض؛ لأن محصلتها النهائية توصل إلى أنه " لا حجة إلا عقول يونان ولا برهان إلا ما وصفوه، ولا حقيقة إلا ما أبرزوه"[٢]. ومن سار ذلك المسير فقد طبع بفكر ولسان اليونان، وإن كان العرب استفادوا المنطق من اليونان فإن فكرهم اعملها وطبعها بطابع عربي إسلامي.

ويقترب السيرافي- بشكل واضح- من هذه الفكرة، وذلك عندما أشار إلى أن أيَّ " لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدودها وصفاتها، في أسمائها وأفعالها وحروفها، وتأليفها وتقديمها وتأخيرها واستعارتها وتحقيقها، وتشديدها وتخفيفها، وسعتها وضيقها، ونظمها، ونثرها وسجعها"[٣]. إنه تركيب لغوي ذهني صرف يختلف اختلافا كليا من لغة لأخرى؛ ولهذا فكل لغة لها حدودها وصفاتها، وهذه الحدود والصفات والطرائق اللغوية تؤديها الجماعة بطريقة تشبه المواقف التي تقوم بها. فالتعبير عن الأسماء يختلف من بيئة لأخرى، فنجد للأسد في العربية أكثر من خمسمائة اسم، بينما لا تجد له في غيرها من اللغات سوى اسم واحد، وتجد عند الأسكيمو ما يزيد عن مائتي اسم للثلج وطرق ندفه وسقوطه، والزمن في الصيغ الفعلية في العربية يختلف عنه في الإنجليزية، وانتظام الجملة العربية واتساقها بمجيء الفعل ثم الفاعل ثم المفعول، على غير ما نجده في الإنجليزية

(١) محسب، محيي الدين، اللغة والفكر والعالم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٧م، ص٣.

(٢) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ١/١١٢.

(٣) المرجع نفسه، ١/ ١١٥- ١١٦.

والفرنسية. ونظام الاستعارة الخاص بالإنجليزية، والمختلف كليا عن العربية. كاستعماله لكلمة (coat) في التعبيرات التالية:

a- Bill put on his coat.

b- The dog has a thick coat of fur.

c- The house has a fresh coat of paint.

فمعنى كلمة (coat) في كل كلمة ينتمي إلى مجموعة دلالية خاصة، ففي العبارة الأولى يعبر الإنجليزي: عن لبس بيل للمعطف، بقوله: (وضع بيل على معطفه)، ويعبر عن الفراء السميك الذي يغطي جلد الكلب، بقوله: (الكلب لديه معطف سميك من الفراء)، ويعبر عن الطلاء الجديد للمنزل، بقوله: (المنزل لديه معطف جديد من الطلاء)، فهم يؤدون العبارات بطريقة تشبه الطريقة التي يرون فيها هذه المواقف.

ولهذا تظهر النسبية جلية من خلال الفكرة التي يعرضها أبو سعيد السيرافي، وتتوافق، إلى حد كبير، مع النظرية النسبية التي جاء بها سابير وبنيامين وورف.

ثانياً: مجال علم اللغة: الرؤية اللغوية النسبية عند ابن جني (٣٢٢هـ _ ٣٩٢هـ):

عرّف ابن جني اللغة فقال: "حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم "وهذا المفهوم الدقيق ينسجم في جوهره مع هوية مفهوم النظرية النسبية عند سابير وبنيامين وورف، فهو يعلل وجود الرموز الصوتية لتمثيلها للرموز الفكرية في إطار البيئة اللغوية، وكان من رأي Scerba أنَّ اللغة ظاهرةٌ عقليةٌ خارجةٌ عن نواميس الفيزياء المعروفة، وصرح بأن: "الأصوات لا وجود لها، وإنما تحيا بأمثلتها، وصورها في العقل"[1] فهذه الرموز الصوتية تختلف أنماطها من مجتمع لآخر؛ لاختلاف الرؤية للأغراض والثقافات، لأن

(١) Kramsky; Jiri: The Phoneme, ١٩٧٤, p ٤١

العلاقة عفوية بين الدال والمدلول، فلكل قوم لغتهم التي يعبرون بها عن أغراضهم. فالإنجليزي يستعمل الإنجليزية ويتفاهم بها مع مجتمعه، والعربي يستعمل العربية للتفاهم والتعامل مع أفراد بيئته.

ومما هو جدير بالذكر أن ماهية النظرية النسبية تتضح في المفهوم الذي يقدمه ابن جني، فقوله: "حد اللغة أصوات"؛ إذ إنه ليس هناك علاقة قصدية لزومية بين الرموز الصوتية والأغراض التي يُعبَّر عنها، في قوله: "عن أغراضهم" إذ لو كانت هناك مثل هذه العلاقة لتشابه النطق عند الجميع، فالواقع يكذب ذلك؛ والأغراض والمثيرات متفاوتة عند الجميع، وبالتالي طرائق التعبير عنها مختلفة لاختلاف الرؤية. ويؤيد ذلك ما يذكره الدكتور محمود شاكر بقوله: "ولما كانت أداة الصوت، وهي الحلق واللسان وما يكتنفها، هي بطبيعتها مختلفة في الناس على تباينهم منذ كان الناس، وكانت الأغراض والعلل التي تلحقها تزيد الاختلاف كثرة وشدة، كانت الأصوات المعبرة عن الأغراض عرضة للتباين والاختلاف أيضا... والجماعات أيضا خاضعة لقانون_ أو قوانين كثيرة– تجعل لكل جماعة دستوراً أو دساتير تجري عليه في كل شأن من شؤونها، وتفضي بها إلى غايات أو نتائج لا محيص عنها، وهذه القوانين تنشئ من الأغراض ما تصبح به الجماعة فئة ذات حضارة مدنية على اختلاف الدرجات".(١)

ولهذا فالعلاقة بين الدال والمدلول علاقة نسبية غير لزومية. وقد تؤدي هذه الاعتباطية والعفوية في العلاقة بين الدال والمدلول إلى إزاحة بعض الألفاظ عن مفهومها الحقيقي إلى مفاهيم ثانوية، فمثلا كل من العربي

(١) شاكر، محمود محمد، اللغة والمجتمع، مجموعة مقالات، مجلة الكتاب، ١٩٤٦م، مج٢، ص٣١٠.

والروسي والصيني والإنجليزي والألماني يطلقون تسمية مختلفة على (العين) إذا ما طلب منهم ذلك، بل إن الشيء نفسه قد يُطلق عليه اسمان مختلفان في لهجتين من لهجات اللغة نفسها، أضف إلى أن المعنى الحقيقي للعين قد ينفك عنه فينصرف اللفظ إلى معان أخر، فيؤدي معنى الجاسوس، وعين الماء، وعين الإبريق، وعين الإبرة. وقد تؤدي فكرة عدم وجود علاقة قصدية بين الشيء واسمه إلى شدة الارتباط بينهما في أذهاننا.

أما قوله: "يعبر بها" فاللغة لها وظيفتها التواصلية التعبيرية إلى جانب وظيفتها الذهنية؛ أي ما يعرف باسم "لغة التفكير" وهي اللغة التي يفكر بها الشخص حين يكون وحيدا مع نفسه ودون أن يخاطب أحداً. وليس ضروريا أن تتطابق لغة التفكير لدى الشخص مع لغته الأولى. فقد تكون اللغة الأولى لشخص ما، هي العربية، ولكنه يفكر بالإنجليزية؛ بسبب هيمنة هذه اللغة لديه، أو لأنه عاش مدة طويلة بين أهلها، أو لأنه تلقى معظم تعليمه بواسطتها. (١) فلغة التفكير في أغلب الأحيان هي الصورة الذهنية للواقع والبيئة، واللغة التي تنتظم بواسطتها الأفكار لتصير فيما بعد لغة منطوقة أو مكتوبة.

ويرى ابن جني أنَّه قد: "ذهب بعضهم إلى أنَّ أصل اللغات كلها إنَّما هو من الأصوات المسموعات؛ كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب الظبي، ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل".(٢)

فابن جني في حديثه عن الأصوات المسموعات ينبه إلى قضية في غاية الأهمية ألا وهي: عالميَّة الوجود الإنساني؛ الإنسان العالَم الأصغر مقابل عالم

(١) ينظر: الخولي، محمد علي، معجم اللغة النظري، مكتبة لبنان، ١٩٨٢م.
(٢) الخصائص، ابن جني، ١٣/١.

المثيرات، ومنها المثيرات الصوتية، كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء، ويؤكد على قدرة الإنسان على محاكاة هذه الموجودات، فهو يرى أنَّ الإنسان يشبه في خصائصه خصائص العالم الخارجي، وهو جزء منه، وأن عقله، وملكاته مصممة على غرار هذا الوجود، وهو بذلك قادر على إدراكه، ومن هنا تشكلت اللغة عند الأفراد من محيطهم الذي ينظم لهم تصورهم للعالم.

وفي موطن آخر يشير ابن جني إلى ما يسمى بـ "وحدة الإحساس" وقد عبر عن ذلك حين قال: "إن طريق الحس موضع تتلاقى فيه طباع البشر، ويتحاكم إليه الأسود والأحمر".(١) وقبل الوقوف على هذه العبارة علينا أن نفرق بين مصطلحين، وهما الإحساس والإدراك.

فالإحساس: عملية نَفْسيَّةٌ تنتج عن انعكاس خصائص الأشياء الخارجية والداخلية للفرد، والتي تنتج عن تأثره ببعض المؤثرات المادية في أعضاء الحواس، والانطباع الحاصل لإحدى حواسنا نتيجة مثير كالإحساس بالألوان والأصوات والروائح والحرارة والبرودة والضغط. ويعتبر الإحساس خطوة أولى للوصول إلى مرحلة الإدراك والانتباه. **والإدراك:** عملية تأويل الإحساسات تأويلا يزودنا بمعلومات عما في عالمنا الخارجي من أشياء، أو هو العملية التي تتم بها معرفتنا لما حولنا من أشياء عن طريق الحواس، كأن أدرك أن هذا الشخص الماثل أمامي أستاذ في الفلسفة، وأن ذلك الحيوان الذي أراه هو قط، وأن هذا الصوت الذي أسمعه هو صوت طائرة، وأن هذه الرائحة التي أشمها هي رائحة العطور. (٢)

---

(١) المرجع نفسه، ٩/١.

(٢) ينظر: العكيلي، عدي عبده عبيد، مقال الإحساس والإدراك والانتباه، كلية التربية الأساسية، جامعة بابل_ العراق، ٢٠١٤م، الشبكة العنكبوتية، رابط: .http://www.uobabylon.edu.iq

ومن هنا يتضح أن الإدراك يمثل العمليات الذهنية المسؤولة عن التفريق بين الأغراض والمثيرات بعضها عن بعض؛ فيعطيها قيما دلالية، فمثلا عند النظر إلى مجموعة أشجار بين المنازل، فإننا نرى تمايزا وتصنيفا من خلال رؤية هذا المشهد، فهي ليست مجرد انبعاث لموجات ضوئية، كذلك الحال في صوت عصفور نسمعه من جهة معينة، فهو ليس مجرد موجات صوتية، بل إنه صوت متمايز يبرز في مجال الإدراك على ما أسمعه من أصوات أخرى.

فالإدراك عمليات تقوم على استقبال الانطباعات والمثيرات التي تسقط على الحواس من العالم الخارجي، وهي إعادة تصنيف وتنظيم للعلاقات في تأويل وترجمة ما ندركه، فلا نصل إلى انطباعات عن الكون والحياة بالإدراك وحده، وكذا لا نصل إلى قيم دلالية ومفاهيم حضارية بالإحساس وحده، فكل منهما لا يتحقق إلا بالآخر.

وعليه يمكن القول: إنَّه ما دام التركيب الفسيولوجي واحداً عند الناس، فالإحساس عندهم واحد؛ وخير مثال على ذلك الإحساس بالألوان، فالإحساس باللون الأحمر واحد عند جميع الشعوب، ولكن الاختلاف في كيفية إدراكه وتأويله وتصنيفه بالذاكرة، وترجمته وفق التراكيب والطرائق والعادات النحوية، فالعربي مثلا يدرك هذه الألوان على غير ما يدركها الفرنسي، أو الإنجليزي، وبالتالي يصنفها لغويا وفق عاداته اللغوية.

ومن هذا القبيل أيضا مسألة إدراك المكان والزمان، فمما لا شك فيه أنه توجد مفاهيم مشتركة بالنسبة إلى المسافات إلا أنك قد تجد كل شعب يقدر المسافات بحسب عاداته اللغوية وتقاليده الحضارية. وإدراك الزمان يقدم لنا أدلة أخرى عن وجود مفاهيم غير مشتركة، فليس المؤكد أن الناس في جميع الأقطار يدركون المقصود بكلمة الفجر أو الصبح أو الظهر أو المغرب أو العشاء أو شروق الشمس أو غروبها أو اشتداد الحرارة أو البرودة بنفس

المستوى، وإذا نظرنا إلى كل شعب على حدة نجد أن الإنجليزي يقول مثلا: مضت عشر دقائق على الثامنة، أو بقيت خمس دقائق حتى تبلغ الساعة التاسعة، أما العربي فيبدأ في تحديد الساعة ثم الدقيقة. (١)

وبعد هذا التفريق نقول: إنَّ ابن جني كان محقاً عندما جعل الإحساس وحدة مشتركة بين الجميع يتحاكم إليها الأسود والأحمر، فقد كان يعي الفرق بينه وبين الإدراك، ولكنه لم يشر إليه صراحة، إلا أننا نلمحه في تعريفه في حد اللغة أنَّها "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم". فالأغراض مثيرات تسقط على الحواس، فيتم ترجمتها وتأويلها وتصنيفها، في الذاكرة وفق عمليات عقلية محضة، ليتم إدراكها، والتعبير عنها بالطريقة التي يراها الأفراد وفق عادات نطقية ولغوية تتوافق مع رؤية الفرد وإدراكه؛ "وأخرج الكلام هنا مخرج ما قد استقر في النفوس وزالت عنه عوارض الشكوك"(٢) فلا تشترك جماعة مع جماعة أخرى في إدراكها للأشياء، وهذه الرؤية تتفق مع رؤية وورف عندما أشار إلى أن اللغة تمارس نوعا من الدكتاتورية على الإدراك الحسي، وأن البنية اللغوية تتشكل في الفرد من محيطه الذي ينظم له تصوره للعالم، وتكون صوره شبه جاهزة.

ثالثاً: مجال علم المنطق: الرؤية اللغوية النسبية عند ابن حزم (٣٥٧هـ _ ٤٥٦هـ):

عرَّف ابن حزم اللغة بقوله: "إنَّها ألفاظ يُعبر بها عن المسميات وعن المعاني المراد إفهامها".(٣) في هذا المفهوم يجعل ابن حزم الألفاظ المنطوقة

(١) ينظر: حماد، أحمد عبد الرحمن، العلاقة بين اللغة والفكر، درا المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥م، ص ٣٩_ ٤١.

(٢) الخصائص،١/١٩.

(٣) ابن حزم، أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٠، ٢٠٠٤م، ١/ ٥٤– ٥٥. ابن حزم، أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد، الرسائل، تحقيق: إحسان عباس، نشر المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ط٢٠، ١٩٨٧م، ٤/ ٤١١.

تمثل مدركات اللغة في حدين: الأول المسميات؛ أي ألفاظ المحسوسات المادية، حيث ربط بينها وبين (التعبير)، في قوله: "يعبر بها"؛ لأن العناصر المادية المحسوسة تكاد تكون واحدة عند الجميع، إنما الاختلاف في إدراكها، وبحتمية الاختلاف في العادات اللغوية التعبيرية، وهذه المحسوسات تكاد تكون واحدة عند الجميع، فالقلم كملمح مادي محسوس في العربية، نفسه القلم في الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والصينية، إنما الاختلاف في التعبير، وهذا الملمح المادي المحسوس يجعل من طريقة إفهامه وتوصيل فكرته للآخرين سهلة الإدراك، ومن هنا ربط ابن حزم بين (المسميات) و(التعبير). والحد الآخر: المعاني، حيث ربط بينها وبين (الإفهام) بقوله: "المعاني المراد إفهامها"؛ لأن أغراض المعاني غير المادية متفاوتة من شعب إلى آخر، كمفاهيم: الزمان، والرائحة، والذوق، والألم، والحب، والكره، وهي على قدر من النسبية والتفاوت في الإفهام والإدراك، وغير متساوية في حدودها عند جميع الشعوب، ومن هنا قيد ابن حزم (المسميات) بالإفهام، إشارة منه إلى نسبية إدراكها وإفهامها، فهي تحتاج جهداً ما للوصول إلى فحواها وتوصيل مدركاتها للآخرين.

انطلق ابن حزم في البحث عن مسائل اللغة من منطلق ظاهريته في رؤية الكون، فبدأ بالبحث عن نشأة اللغة وانتهى إلى القول بتوقيفية اللغة من الله؛ ذلك أنَّ اللغة لو كانت "اصطلاحا لما جاز أن يصطلح عليه إلا قوم كملت أذهانهم، وتدربت عقولهم، وتمت علومهم، ووقفوا على الأشياء كلها الموجودة في العالم، وعرفوا حدودها واتفاقها، واختلافها، وطباعها، وبالضرورة نعلم أن بين أول وجود الإنسان وبين بلوغه هذه الصفة سنين كثيرة يقتضي في ذلك تربية وحياطة وكفالة من غيره".(١)

(١) ابن حزم، الإحكام، ٢٩/١.

يتضح من كلام ابن حزم العلاقة التلازمية بين الفكر واللغة، وذلك من خلال ربطه بين نشأة اللغة بنشأة الوجود الإنساني، وحجته في ذلك، أنَّ الذي أوجد الخلق أوجد فيهم الكلام، ولذلك كان الكلام والفكر متلازمين. ولو تصاقبت عناصر كمال اللغة وتمام علومها، والموجودات في الناس مرة واحدة؛ لكانت المعارف عندهم واحدة، ولتكلموا بلغة واحدة، وفكروا بالنسقية نفسها. وكانوا على درجة واحدة من العلوم؛ ولهذا يؤكد ابن حزم على فكرة الإلهام الإلهي للغة، واختلاف اللغات لاختلاف رؤية العالم في قوله: "وقفوا على الأشياء كلها الموجودة في العالم"، وفي قوله: "لما جاز أن يصطلح عليه إلا قوم كملت أذهانهم، وتدربت عقولهم". ولمَّا انتفى الاصطلاح في أصل وضع اللغة، وتعززت فكرة الإلهام الإلهي فيها، رأى ابن حزم أن الأذهان لم تكتمل، ولم تتدرب العقول؛ إلا بالوقوف على الموجودات في العالم، فهي تزود العقول بالمعارف، وتصقل الأذهان وتثير الفكر، وبها تكتمل اللغة.

ويؤكد ابن حزم من جديد على علاقة اللغة والفكر، بتحديد إطار هذه العلاقة بحدود واعتبارات منها: أنه لا تتم عملية التفكير إلا باللغة، ولا وجود للغة بدون أن تكون محملة بالفكر، فلا "سبيل إلى معرفة الأشياء إلا بتوسط اللغة"[١]

فمعرفة الحقائق لا تكون إلا بتوسط اللغة، وإدراك المعاني لا يتم إلا بالكلمات، والعبارات اللغوية، كما أن إدراك حقائق الموجودات وتمييز المسميات والمدلولات عن بعضها البعض لا يمكن أن يحدث إلا باللغة[٢]؛ أي أنه لا

(١) ابن حزم، الرسائل، ٤/ ٩٦.

(٢) ينظر: يانا، ثاني بابيو، علاقة اللغة بالفكر بين اللغويين العرب الأقدمين والدرس اللغوي الحديث، مجلة جامعة بخت الرضا العلمية، ع٦، مايو ٢٠١٣م، ص ١٠٨.

تصورات ذهنية بغير ألفاظ أو معان، فالألفاظ_ في حد ذاتها_ لا يعتد بها وليست ذات قيمة إذا لم تمثل التصورات الذهنية. والتصورات الذهنية ما هي إلا خيالات إذا لم تحيها اللغة، وتحقق وجودها الواقعي. فاللغة ليست مجرد وسيلة لتحقيق الفكر بل هي الفكر ذاته؛ ولهذا يمكن أن يقال في حق اللغة: إنها المرآة التي تنعكس عليها مثيرات العالم الواقعي، وهي لا تقدم رؤى حقيقة عن الواقع بقدر ما هي صورة أخرى، مشهد آخر، تشكيل جديد، ليس بينها وبين الواقع الحقيقي أي رابط، أضف إلى أنها لا تعكس صورة مثالية واحدة لدى الجميع، وهذا بدورة يظهر أثرة في الأنظمة النحوية التي تحقق هذه الصور، وتلك الانطباعات. ومن هنا لا يمكن أن يحيا الفكر إلا بتوسط اللغة.

ويؤكد ابن حزم مرة أخرى على العلاقة الحتمية بين الوجود الإنساني والكلام، بقوله: "لا سبيل إلى وجود أحد من الناس ووجوده دون كلام".(١)حيث ربط بقاء الإنسان بوجود اللغة باعتبارها واسطة يعبر بها الإنسان عن أفكاره وأحاسيسه وتتضح مشاعره للناس، فيسهل التواصل، وتأخذ الحياة البشرية شكلها الاجتماعي والتطوري، فالإنسان يعقل وجوده ووجود ما يحيط به بالفكر، ولأنه يؤلف بلغته بين الموجودات فإنها تكون على مثال هذه الأشياء، ويعيش صاحبها بينها وبين الفكر، وتأخذ الحياة البشرية شكلها الاجتماعي والتطوري، وبهذه الرؤية يمكن اعتبار ابن حزم من رواد "النسبية اللغوية"، التي ترى أن اللغة تشكل الرؤية للعالم وأن التجربة الإنسانية هي جدل العلاقة بين لغة الإنسان وفكره.(٢)

(١) ابن حزم، الإحكام، ١/ ٢٧.

(٢) ينظر: يانا، ثاني بابيو، المرجع نفسه، ص ١٠٨.

ورفض فكرة أن تكون نشأة اللغة من الطبيعة؛ لأنه لو كان الأمر كذلك، لكان لكل جماعة من الناس على بقعة ما من الأرض لغة خاصة بهم، ولما كان بمقدور أهل كل بقعة أن يتفاهموا مع أهالي البقاع الأخرى تبعا لذلك، فهذا غير معقول؛ لأن الواقع والتاريخ يثبتان وجود بقاع وأقطار مختلفة ومتباعدة لها نفس اللغة، ثم إن الطبيعة لا تفعل إلا فعلا واحدا؛ لأنها تتسم بالجمود والثبات، بل تخضع للحتمية ولا تتصرف باختيارها فأنى لها أن تقوم بذلك(١) "لجأ بعضهم إلى نوع من الاختلاط وهو أن قال: إنّ الأماكن أوجبت بالطبع على ساكنيها النطق بكل لغة نطقوا بها، وهذا محال ممتنع؛ لأنه لو كانت اللغات على ما توجبه طبائع الأمكنة لم أمكن وجود كلِّ مكان إلا بلغتهم التي يوجبها طبعه، وهذا يرى بالعيان بطلانه"(٢) فتأليف الكلام فعل اختياري تلتقي به الشعوب، ولو كانت اللغات من فعل الطبيعة لما ظهر لنا هذا التفاوت بين اللغات في الألفاظ والدلالات والتراكيب، فابن حزم يطلق العنان للغات في التعبير عن الفكر الإنساني التي هي تمثيل للواقع؛ وبذلك يؤكد ابن حزم على رؤية النسبية اللغوية.

رابعاً: مجال علم البلاغة: الرؤية اللغوية النسبية عند عبد القاهر الجرجاني (٤٠٠هـ _ ٤٧٠هـ):

تناول كثير من العلماء المحدثين المشتغلين بالدرس البلاغي الأفكار التي قدمها عبد القاهر الجرجاني في كتابيه: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، على أنها أطر ومحددات لعلاقة اللفظ بالمعنى، ولكنني في هذا المقام أسلط الضوء

(١) ينظر عبد السلام، سعد، أصول فلسفة اللغة عند ابن حزم الظاهري، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، مركز جيل البحث العلمي _ الجزائر، ع٢٨، ٢٠١٧م، ص٢٨_ ٢٩.

(٢) ابن حزم، الإحكام، ١/ ٢٨.

على هذه الأفكار من وجهة نظر مغايرة، وخروجا عما عهده الدارسون والباحثون، رؤية في الأفكار التي قدمها عبد القاهر الجرجاني تعزو سبب اختلاف المنظومة النحوية إلى اختلاف رؤية الفرد لهذا العالم، ومما هو جدير بالذكر أنه ربما يعترض معترض على ذلك مدعيا أن هذه اللَّبنات التي شيدها عبد القاهر الجرجاني ما هي إلا لبنات محضة في تفسير العمليات الذهنية الصرفة التي تتحقق فيها المعاني والأغراض الشعرية، ويغيب عن البال أنَّ كلَّ ما قدمه من أفكار في هذه الأغراض، يدخل في جوهر رؤية الفرد للعالم والواقع الذي يعيشه، وما المنظومة النحوية والكلامية إلا تجسيد لهذا الواقع، فالنحو العربي ليس مجرد قواعد لتعليم النطق السليم أو الكتابة الصحيحة، بل هو أكثر من ذلك بأنه قانون ومنطق الفكر داخل هذه اللغة، وعليه فقد ارتأيت أن أستنطق ما في هذه النصوص من أفكار تعد أساساً للرؤية النسبية اللغوية.

ومما يجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن انفتاح القراءة صوب نص من النصوص في غرض ما قد يجعل الرؤية إليه مقصورة في هذا الغرض في البحث والدراسة، وقد ينظر إلى أنَّ قراءته قراءة مغايره خروج وتمرد على النص، ولهذا انصرفت أكثر الدراسات حول ما قدمه الجرجاني من أفكار في علاقة اللفظ بالمعنى حصرا على أنها أفكار صرفه ومحضة في الدراسة البلاغية وانتظام المعاني وأسبقيتها على الألفاظ، وأي خروج عن ذلك بنظرهم هو إزاحة للنص عن مقصده وغرضه وهذا ما لا يقبله العلم.

يرى عبد القاهر الجرجاني أنَّ التفكير لغة نَفْسِيّة واللغة تفكير نَفَسِيَ. ثمّ بنى رؤيته من خلال العلاقة اللزومية القائمة بين المعاني والمنظومة النحوية، والتي تظهر في صورة اتساق الألفاظ وانتظامها في التراكيب النحوية بناء على اتساق وانتظام معانيها في الفكر، وفي ذلك يقول: "لو كان القصد بالنظم إلى اللّفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب

المعاني في النفس، ثم النطق بالألفاظ على حذوها لكان ينبغي أن لا يختلف حال اثنين في العلم بِحُسْنِ النَّظم، أو غير الحُسْنِ فيه؛ لأنهما يحسَّان بتوالي الألفاظ في النطق إحساسا واحدا، ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئا يجهله الآخر".(١) أمَّا القول: "بترتيب المعاني في النفس" فيفرق عبد القاهر الجرجاني بين ثلاث عمليات رئيسية تدخل في تكوين البنى التركيبية والنظام النحوي قبل فهمها وإدراكها لدى السامع، فالمعاني وقبل أن تأخذَ هذه الصفة من الانتظام والترتيب النَّفْسِي في الذهن، ما هي في حقيقة أمرها إلا مثيرات تقع على الحواس، وهو ما يشترك فيه الجميع دون فرق، فـ "الإحساس بتوالي الألفاظ في النطق إحساس واحدٌ"(٢) ولكنَّ الاختلاف في ترتيب المعاني في النَّفْس، فالألفاظ متاحة للجميع إذا ما تهيأت أعضاء النطق لأدائها والنطق بها، ولما كان القصد من النطق هو الإفهام والإفصاح عن الأفكار وبيانها، فلا بدّ أن تكون في أصلها متسقة منتظمة، تخضع لفكر منظم لتحقيق قصد الإفهام من الكلام لدى السامع، ولذلك تباين الناس في حسن الإفهام لتباينهم في الإدراك؛ أي في ترتيب المعاني في النَّفْس. وهذا التبيان في الإفهام راجع في أساسه إلى التبيان في التفكير، وهو بحد ذاته يؤدي إلى تبيان في الأنظمة النحوية في اللغات بين الشعوب، وما التَّحوُّل في دلالات الألفاظ عن صورها في أصل وضعها إلى صور جديدة إلا تغير في التفكير وإعادة تنظيم وترتيب للمعاني في النفس، ويؤكد الجرجاني على ذلك بقوله: "إنَّك تستطيع أن تنقل الكلام في معناه عن

(١) الجرجاني، أبو بكر، عبد الرحمن بن محمد، دلائل الإعجاز، تعليق: د محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط٣، ١٩٩٢م، ص٥١.

(٢) دلائل الإعجاز، ص٥١.

صورة إلى صورة، من غير أن تغيَّر من لفظه شيئا، أو تُحوّل كلمة من مكانها إلى آخر، وهو الذي وسَّع مجال التأويل والتفسير، حتى صاروا يتأولون في الكلام الواحد تأويلين أو أكثر".[١] ويشير هذا الأمر إلى شيئين: اضطرابٍ في التفكير أدى إلى اضطراب اللغة ومن جانب ثان يشير إلى ظهور معان جديدة للألفاظ نفسها تأخذ منحى جديدا في اللغة، موقف إيجابي لا محالة في إثراء مفرداتها وظاهرة صحية.

وتتجلى ذروة النسبية عند عبد القاهر في أنه أنزل "الكلام منزلة القادح لخروج كوامن نفس الإنسان وطاقاته إلى حيز الفعل، حتّى إنّ قوى العقل والخاطر والفكر والإدراك والقريحة والذّهن هي أبدا حبيسة ما لم ينفث فيها الكلام معالم الوجود، إذ إنَّ بين الكلام والفكر رابطة عضويّة وتلازم مطّرد؛ فالمعاني ليست مجرّ د شيء تعبّر عنه اللّغة وإنّما هي شيء تنتجه، فليس للشّيء في الوجود الظاهري وجود حتى تسميه اللغة وتشير إليه"،[٢] يقول في ذلك "فلولاه [الكلام] لم تكن لتتعدى فوائد العلم عالمِه، ولا صح من العاقل أنْ يفتق عن أزاهير العقل كمائمه، ولَعُطِّلت قوى الخواطر والأفكار من معانيها، واستوت القضية في موجودها وفنيها. نعم، ولوقع الحيُّ الحسَّاس في مرتبة الجماد، ولكان الإدراك كالذي ينافيه من الأضداد، ولبقيت القلوب مقفلةً تتصوَّن على ودائعها، والمعاني مسجونة في مواضعها". [٣]، ففي

(١) دلائل الإعجاز، ص٣٧٤.

(٢) يانا، ثاني بابيو، علاقة اللغة بالفكر بين اللغويين العرب الأقدمين والدرس اللغوي الحديث، مجلة جامعة بخت الرضا العلمية، ع٦، مايو ٢٠١٣م، ص ١٠٣.

(٣) أبو بكر، الجرجاني، عبد الرحمن بن محمد، أسرار البلاغة، تعليق: د محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة (د. ط) (د. ت)، ص٣.

هذه العبارة يميط الشيخ اللثام عن كثير من الخفايا والأسرار، التي تعد أساسا، بل ذروة ما وصلت إليه النسبية اللغوية في العصر الحديث، ويمكن إجمالها في عدد من العناصر، وهي:

- ربط الشيخ بين الطاقة الكامنة في الذهن وبين الكلام، فهي في نظره ميتة، وليست ذات جدوى، إذا لم تتحول إلى طاقة نَفَسِيّة كلامية.
- صرَّح بتفجُّر قوى الخواطر والأفكار، كنتيجة لاستجابة الحواس للمثيرات عن سطوح المدلولات في هذا العالم.
- أشار بقوله: "أن يفتق عن أزاهير العقل" إلى عملية ذهنية خلاقة، تنبني على إعادة ترتيب للقوى الكامنة في العقل من الخواطر والأفكار، فهي قوى تنبعث انبعاثا غير منتظم، وتسير سيراً تداخليا وتشابكيا في الذهن، فيقوم العقل على إعادة إدراج نسقي تجريدي لهذه الانبعاثات العفوية، قبل أن تصير كلامية، ولم تصبح كذلك إلا بفعل الإدراك لها وتنظيمها وترتيبها. ولا يغيب عن البال أن هذه النسقيات التنظيمية تتفاوت بين الأفراد والجماعات، حسب القدرة على إدراكها.

ويرى عبد القاهر الجرجاني: أن المعاني تسبق الألفاظ في الفكر "فالألفاظ إذ كانت أوعية للمعاني، فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النَّفْس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق. فأما أن تتصور في الألفاظ أنْ تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب، وأن يكون الفكر في النظم الذي يتواصفه البلغاء فكرا في نظم الألفاظ، أو أن نحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لأن تجيء بالألفاظ على نسقها، فباطل من الظن، ووهم يتخيل إلى من لا يوفي النظر حقه". (١)

(١) دلائل الإعجاز، ص ٥٢- ٥٣.

فعندما تثار فكرة في العقل الإنساني، تتحرك في الفضاء النَّفْسي حركة غير منتظمة، لا يمكن التحكم بها، والسيطرة عليها ما دامت فكرة وميضية؛ (موجية) غير واضحة تماما، وليس بالإمكان وضعها بقالبها المادي، حتى تخرج من شكلها الفوتوني (الطاقة المنبعثة من الجسيم) مركز الإثارة الذي تنبعث منه الأمواج، وتلامس الحس، وبعد اكتمال الانبعاث الموجي، الصادر عن سطوح الموجودات، يحدث أن تصادف هذه الأفكار الوميضية قوالب لفظية تجريدية ذهنية خالصة فتنسجم وترتبط معها ارتباطا عفويا قبل نقلها إلى الوجود المادي بين العقل والأعصاب والأعضاء الكلامية ،فتبدأ عملية نقل للفكرة الذهنية إلى الكلام الذهني، فالكلام الذهني صورة صوت النَّفْس في شكله الظاهر، وهذا يعتد على قابلية اللغة وجاهزيتها، في تمثيل هذه الأفكار.

ولهذا أكد الجرجاني في أكثر من موضع على أنه لولا العقل والفكر عند الإنسان ما كنا نتصور وجود اللغة، فاللغة هي التي تبث الروح في الأفكار، وهي المسؤولة عن إعطائه الصفات النطقية والسمعية، وإلا لبقي الفكر حبيس الذهن، لا قيمة له، ولهذا نبه الجرجاني، على أنه لا يمكن الفصل بين اللغة والفكر، فالفكر هو الذي يملأ هذه الأوعية التي تسمى الألفاظ بالمعاني، واللغة هي التي تمنع الفكر من الضياع، وهي المسؤولة عن نقلة من صفاته الموجية الوميضية إلى صفاته المادية، ولهذا يستحيل الفصل بينهما، وبالوجود اللغوي يتحقق الوجود الحضاري والثقافي الإنساني، بالنسبة لعالمه الذي فيه، فاللغة مصدرها العالم والواقع الذي يعيشه الإنسان، فلا وجود للغة بلا عالم، ولا قيمة للوجود الإنساني، بدون اللغة، فهي الناقل للإرث الحضاري والثقافي، ولولاها لفقد الإنسان هويته وتاريخه وحضارته وأعرافه وتقاليده، وقيمه، ولاستبدت به البدائية والضياع، مهما تقدم به الزمن، فليست الحضارة والثقافة بالتقادم، ولهذا

لا يمكن أن ينفصل الإنسان عن عالمه الذي هو فيه، كما أنه يمكن أن تنفصل اللغة عن الفكر، فالإنسان يفكر بهذا العالم باللغة، ويستحضر موجوداته باللغة، فلا يمكن الفصل بين العالم والفكر، فكل منهما يغذي الآخر، فالعالم يغذي الفكر بالمعطيات والمستجدات لحياته ومعيشته، وكذلك اللغة تزود هذا العالم بالإحداثيات النسبية الصحيحة، والدلالات وتمنح هذه الموجودات صفة تمييزية، فلولا اللغة لبقيت التصورات عن هذا العالم تسير هائمة غير منظمة، لعدم تمثيلها التمثيل الصحيح باللغة، ولتداخلت مفاهيمها، ومن هنا يمكن القول: إنَّ اللغة ترفد العالم بالبقاء، والعالم يرفد اللغة بالأغراض والموجودات، وهذه الموجودات قد يكون مآلها الضياع والفناء لعدم إحيائها باللغة، وإعطائها صفات دلالية، قال تعالى: " وعلم آدم الأسماء كلها" تعليم حتمي للغة لمعرفة سر الوجود والموجودات؛ القاعدة الأولى للتعرف على هذا العالم، وربطه باللغة. ولذا كانت اللغة هي الممثل الحقيقي لسر الوجود، والتمثيل الإيديولوجي للوجود، بطرق لغوية وعادات نطقية متفاوتة حسب الرؤية لهذا العالم. وهو سرّ اشتغال عبد القاهر بالتأطير لعلاقة اللغة بالفكر.

ويتضح هذا عند الشيخ الجرجاني بقوله: "لا يتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وأنَّك تتوخى الترتيب في المعاني، وتعمل الفكر هناك، فإذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكرة في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدمٌ للمعاني، وتابعة لها، ولا حقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة في النطق"[1]

(١) المرجع نفسه، ص ٥٤.

ويستمر الجرجاني في تأكيده على أن الألفاظ مرآة للمعاني، فلا تولد المعاني من العدم، وقد يتوهم البعض أن النفي حاصل في بعض الألفاظ لأن المعاني في ذاتها منفية، أي لا وجود لها، وأن الإثبات حاصل فيها لأن المعاني موجودة، حاصلة فيها، وهذا ما لا يقبله المنطق والعلم، إذ إنَّ التَّعالق بين اللفظ والمعنى لا يتحصل من اللاوجود، فالألفاظ لا تعبر إلا عن الموجودات والأغراض في هذا العالم، ولا يمكن أن تؤدي فضاءات اللاوجود، وهو ما يؤكد عليه الجرجاني بقوله : "واعلم أنك إذا فتشت أصحاب اللفظ عما في نفوسهم وجدتهم قد توهموا في الخبر أنه صفة للفظ، وأن المعنى في كونه إثباتا، أنه لفظ يدل على وجود المعنى من الشيء أو فيه، وفي كونه نفيا أنه لفظ يدل على عدمه وانتفائه عن الشيء، وهو شيء قد لزمهم وسرى في عروقهم وامتزج بطباعهم والدليل على بطلان ما اعتقدوه أنه محال أن يكون اللفظ قد نصب دليلا على شيء ثم لا يحصل منه العلم بذلك الشيء، إذ لا معنى لكون الشيء دليلا إلا إفادته إياك العلمَ بما هو دليل عليه، وإذا كان هذا كذلك عُلم منه أنه ليس الأمر على ما قالوه من أن المعنى في وصفنا "اللفظَ" بأنه خبر، أنه قد وضع لأن يدلَّ على وجود المعنى أو عدم"(١).

فالمعاني الذهنية صورة أخرى للواقع، واقع آخر بصورة مثالية ندركه، ولكن لا نفهم كنهه إلا بالألفاظ، ولا يمكن أن يعبر اللفظ عن شيء آخر غير الذي يفكر فيه الإنسان أو ويراه أو يسمعه، فهو يفكر بما يرى، ويصوغ الألفاظ ويصنعها وفق رؤيته، فالألفاظ صياغة وصناعة ذهنية خالصة، تنسج

(١) دلائل الإعجاز، ص٥٢٧.

وتصاغ مفاصلها في الذهن، قبل أن تكون أحداثا كلامية، تفكر فيها كغيرها من الصناعات "فأي شيء وجدته الذي تلبس به فكرك من بين المعاني والألفاظ، فهو الذي تَحْدُث فيه صنعتك، وتقع فيه صياغتك ونظمك وتصويرك، فمحال أن تتفكر في شيء وأنت لا تصنع فيه شيئا، وإنما تصنع في غيره، لو جاز ذلك، لجاز أن يفكر البناء في الغزل، ليجعل فكره فيه وُصْلَةً إلى أن يصنع من الآجر، وهو من الإحالة المفرطة"(١) وهذا التأطير عند الجرجاني في ذروة النسبية اللغوية الحديثة.

خامساً: مجال علم الفلسفة: الرؤية اللغوية النسبية عند أبي حامد الغزالي (٤٥٠هـ _ ٥٠٥هـ):

ويعد أبو حامد الغزالي من العلماء والفلاسفة الذين لهم درج السبق في تأطير ومنهجه الدرس اللغوي الفكري من خلال النظرة للعالم والوجود، فقد تناول العديد من المباحث في الأصول ومنها مفهوم الكلام وحدوده، فهو يرى أن الكلام "حديث النَّفْس، أو نطق النَّفْس، أو مدلول أمارات وضعت للتفاهم وهو الأصح. ولعلنا نقول: لا حد له كما ذكرنا في حد العلم إذ العبارات المنقولة قاصرة على المعاني المعقولة"(٢) فالإمام الغزالي يؤكد على الجانب الذهني النَّفْسي للكلام قبل الجانب الفسيولوجي؛ الجانب الوظيفي للأعضاء. فالكلام هو الجسد الحيُّ للفكر، والفكرُ هو الروح الخفيَّة للكلام، فما دامت الحواس منتصبةٌ بالعلامات فهي تنبئ عن الروح، والعلامات النطقية تنبئ عن الأفكار المختزنة في الذهن، فلا غنى عن تمثيل المعاني بعلامات

(١) المرجع نفسه، ص ٥١.

(٢) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، المنخول من تعليقات الأصول، تحقيق: الدكتور محمد حسن هيتو، دار الفكر المعاصر– بيروت، لبنان، دار الفكر دمشق – سورية، ط٣، ١٩٩٨م، ص١٦٦.

كلامية؛ فكلُّ إنسان عنده استجابة عضوية للنطق، لا يتموضع لسانه إلا بنصب رموز لتحقيق ما في صدره.

ويرى الغزالي: أنَّ الكلام يتم عن طرق ثلاثة: عن طريق عين تشاهد، وفكر يُحلّلُ، وتجد الفكرة سبيلها للظهور عبر اللسان في ألفاظ، فإدراك المتصور يتحقق في ثلاثة من حواس الإنسان، فلفظة "رجل" له وجود في الأعيان، وفي الأذهان، وفي اللسان أما وجوده في اللسان فلفظ "رجل "وأما ما في الأذهان من معنى الرجل فيسمى كليا من حيث إنَّ العقل يأخذ من مشاهدة زيد [مثلا [حقيقة الإنسان وحقيقة الرجل (١).

وعلى سبيل المثال فإنَّ الشجرة في الحقيقة تثير مجموعة من التمثيلات الذهنية وهي: أولا: الصورة الذهنية لشكل الشجرة؛ تلك الصورة التي تُثار إذا ما طلب من شخص أن يذهبَ إلى شجرةٍ، فهو يذهب إلى المتصور الذهني الذي رآه حقيقة من قبل، ولا يذهب إلى غيره فلا نتصور أنْ يذهبَ إلى غرفة نومه، أو إلى قاعة الاجتماعات مثلا. والصورة الثانية: وهي الرمز الصوتي الذهني للفظ أو منطوق الشجرة، إذ إنَّه ليس من الممكن أن يُنْطق بهذا اللفظ دون استحضارٍ مُسْبق للصورة النطقية المنتظمة في الذهن، والصورة الثالثة: الصورة الذهنية للرمز الكتابي لكلمة الشجرة، حيث يتم إسقاطه على الورقة في حال كتابته دون التهجئة إذا ما طلب منه كتابة لفظ شجرة، فهو يستحضر الصورة الذهنية لصورة لفظ شجرة.

---

(١) ينظر: يانا، ثاني بابيو، علاقة اللغة بالفكر بين اللغويين العرب الأقدمين والدرس اللغوي الحديث، مجلة جامعة بخت الرضا العلمية، ع٦، مايو ٢٠١٣م، ص١٠٩.

نخلص مما سبق إلى أنّ الإمام الغزالي، توصل إلى الكشف عن كثير من أسرار اللغة وعلاقتها بالفكر؛ إذ إنَّه ربط بين اللغة والفكر وجعلهما بحد يستحيل الفصل بينهما، فالمنظومة اللغوية التي تتمثل بالتركيب النحوي هو الذي يصيّر الفكر إلى الوجود الخارجي، ليبث فيه الحياة، والفِكْر لا يتحقق ولا يحيا إلا باللغة لكي تخرجه من خفائه، كما أنَّ اللغة محتاجة إلى الفكر كي تُعَبِّر عن موجودات وأغراض هذا العالم بوضوح، فاللغة تتشكل وتنسجم مع حيثيات ومثيرات هذا العالم وفق رؤية الفرد له. وعليه يمكن القول: إنَّ اللغة تعكس نمط الوجود والحضارة والتاريخ، فتدل فيه المصادر والمفاهيم المنطوية عليها على وحدانية الانبثاق وانسجام المظاهر، وتدل الألفاظ الحاصلة من المصادر على تغير نمطية اللغة تبعا لتغير التفكير.

ولا يخرج الغزالي بفكره الفلسفي عن الآراء السابقة التي قدمها ابن حزم وهو أن الكلام "اسم مشترك قد يطلق على الألفاظ الدالة على ما في النفس وقد يطلق على مدلول العبارة وهي المعاني التي في النفس" فالكلام هو الفكر في شكله الظاهر، والفكر كلام خفي، وما دام الإنسان يمتلك معاني في ذهنه فهو محتاج إلى وضع علامات بإزاء هذه المعاني ليتم ذلك نقلها إلى الآخرين.

سادساً: مجال علم الاجتماع: الرؤية اللغوية النسبية عند ابن خلدون (٧٣٢هـ_ ٨٠٨هـ):

يقول ابن خلدون: "اعلم أنّ صناعة الكلام نظماً ونثراً إنَّما هي في الألفاظ لا في المعاني. وإنَّما المعاني تتبع لها وهي أصل، فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النَّظم والنَّثر إنَّما يحاولها في الألفاظ.. والذي في اللسان والنطق إنَّما

هو في الألفاظ. وأمَّا المعاني فهي في الضمائر، وأيضا فالمعاني موجودة عند كل واحد، وطوَّع كلُّ فكر منها ما يشاء ويرضى، فلا تحتاج إلى صناعة. وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه، وهو بمثابة القوالب للمعاني. فكما أن الأواني التي يغترف بها الماء من البحر، منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف، والماء واحد في نفسه، وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء، كذلك جودة اللغة وبلاغتها "[١].

يبدو من ظاهر الحديث عند ابن خلدون أنَّه يدور حول اللغة دون الفكر، إلا أنَّنا نرى أنه يثير قضيةً فكريةً أصيلةً تنبه إليها عبد القاهر الجرجاني من قبله، حين جعل الألفاظ أوعية المعاني، وأنَّها لا تتحقق ولا تحيا إلا بوجود الألفاظ، فابن خلدون لا يعتد بالحتمية اللغة_ الجانب المتطرف للنظرية النسبية_ التي ترى: "أنّ النظام اللغوي لكل لغة ليس مجرد أداة تستخدم لإعادة بناء التعبير عن الأفكار، بل إنَّه البرنامج، والمشكل للأفكار ، والمرشد للنشاط الذهني للفرد، ولتحليل انطباعاته ولتركيب المخزون الذهني للفرد"[٢] فاللغة لا تتحكم في الفكر ولا تؤثر فيه، فهو يرى: "المعاني موجودة عند كل أحد، وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى"[٣]، فاللغة لا تملك أيَّ سطوة على الفكر الإنساني، والفكر ليس رهين بقيود اللغة، الأمر الذي يقودنا إلى القول بالحرية

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب للدراسات والنشر، اتحاد مكتبات الجامعات المصرية، ط١، ٢٠٠٤م، ١٣١٢/٣.

(٢) ينظر: حمد، عبد الرحمن حامد، الفرضية الحتمية اللغوية واللغة العربية، مجلة عالم الفكر، مج٢٨، ع٣، ٢٠٠٠، ص١١.

(٣) المقدمة، ١٣١٢/٣.

الفكرية للفرد، وقدرة الفرد على التفكير خارج حدود اللغة، إذ إنَّه بسمو إعماله للعقل وحسن تنظيمه للمعاني الهائمة في الذهن قد يقوده ذلك إلى العبقرية الفكرية؛ أي إنتاج أعمال عبقرية، وقد تكون غير ذلك، دون إي إذن وتصريح من اللغة، أو اختراق للمنظومة النحوية.

إنَّ العمل الذي قام به ابن خلدون عندما عمد إلى فك القيود التي يمكن أن يقال: تفرضها اللغة على التفكير، تنبه من جانب آخر، إلى دور اللغة في نقل الأفكار والمعاني الذهنية؛ أي اللغة كوسيلة أو ناقل للنشاطات والانبعاثات التي تدور في الأذهان، وسيط تعبيريّ عن الأفكار ليس أكثر في حدود هذا الطرح، فعملية التفكير عند ابن خلدون، يلزمها استعمال اللغة، والتي هي "بمثابة القوالب للمعاني". وهذا القوالب والأنماط النحوية ما هي إلا تصوير للواقع والعالم حسب ما يراه الفرد، إنها رؤية للواقع بالقوالب، رؤية للظاهرة نفسها بقوالب مختلفة، فاختلاف القوالب لا يعني مجرد اختلاف في النظام النحوي التركيبي فقط، وإنَّما يعني اختلاف في القوالب الذهنية كذلك؛ ولهذا تختلف تصورات الإنسان عن العالم الخارجي، تبعا لاختلاف القوالب اللغوية، واللغة تصنيف وترتيب لتيار التجربة العملية التي ينتجها نظام مجتمع معين، والناس يؤدون المواقف بطريقة تشبه الطريقة التي يتكلمون بها عن هذه المواقف. وإتقان هذه القولبة هو عين "ملكة اللسان" تُتَحصَّل بالسماع والمران والدربة، فالتعبير عن الأفكار يتم بمحاكاة النَّسقية والأنظمة التي سار عليها الآخرون، وهذا ما رمى إليه ابن خلدون عند وصفه الألفاظ بالقوالب، فاللغة عند ابن خلدون لا تسيطر على الفكر وتقيده، وإنَّما تحدد طرائق التعبير عنه، "فصناعة الكلام نظماً ونثراً إنَّما هي في الألفاظ لا في المعاني".

قد يبدو للوهلة الأولى تضارب بين آراء ابن خلدون في علاقة اللغة بالفكر، فهو يرى أن اللغة لا تشكل أي قيود على الفكر وفي نفس الإطار

يجعل من اللغة أوعيةً تملَؤُها المعاني. إنَّ الطبيعة الاجتماعية للغة تجمع بين النظرتين، فاللغة تُكْتَسبُ من المجتمع لتصيرَ ملكةً، وباللغة تُوصَلُ الأفْكار لتصير مُمْكِنَةً يفهمها النَّاس، فلا اعتبار ولا قيمة للفكرة إذا بقيت حبيسة في الذهن، لم تصل إلى العقول والأفهام، فوظيفة اللغة كوسيلة للتواصل وماهيتها الاجتماعية، قد يكون وراء من قال بالحتمية اللغوية، وقد تكون صياغة الأفكار وفق أطر معينة تنسجم وإفهام الناس، جعلها وكأنها مقيدة باللغة.

ليس من السهولة بمكان القول: بأنَّ اللغةَ تشكل الفكر وتفرض عليه قيوداً، ونأخذ مثالا على ذلك ففي العربية مثلا نستخدم للمخاطب ضمير (أنتَ) وللمخاطبة ضمير (أنتِ) بينما في الإنجليزية لا يوجد سوى ضمير واحد للمخاطب والمخاطبة وهو الضمير (you)، فهذا لا يعني أنَّ المتحدثين باللغة الإنجليزية لا يدركون الفرق بين الرجل أو المرأة عند توجيه الخطاب لأحدهما. وفي العربية كذلك تكون فيها بعض الأسماء لغير العاقل إما مذكرة أو مؤنثة، وهذا لا يعني إكسابها صفات التأنيث أو التذكير على وجه الحقيقة والعادة بين الناس، وهو جوهر ما أراده ابن خلدون من أنَّ الفكر عنده ليس أسيراً للُّغة بل هو قوالب ونمذجة للفكر، ولولا تلك القولبة، لانتفى الهدف التواصلي والاجتماعي للغة.

وهذا الأمر يقودنا إلى القول: إنّ لكل لغة عالمها الخاص وواقعها الذي تولدت منه، عالم مُحمَّل بأفكار المتحدثين وثقافتهم، فاللغة السائدة في مجتمع ما تعكس فكر ذلك المجتمع وعاداته وثقافته، والتي يُكتب لها أن تنتشر وتسود، ويحدد أيضا ما لا يمكن أن يقبله المجتمع من تلك الأفكار المؤطر باللغة وما لا يقبله وإنْ جيشت له جحافل الكتاب والمذيعين.

الخاتمة

سواء أثر الفكر في اللغة أو أثرت اللغة في الفكر، فلا ننسى دور المجتمع في تحديد شكل اللغة وتأطير الفكر، ودوره في التأثير في كيفية التعبير عما ينتجه العقل من الأفكار. فاللغة نتاج المجتمع، ولا يمكن النظر إليها مجردة، فهي وإن خرجت من حتمية التفكير لازمة في حتمية التعبير، وإن جاءت في المفهوم الخلدوني "عبارة المتحدث عن مقصودة"، إلا أنها في الوقت ذاته "في كل أمة حسب اصطلاحاتهم". أما نتائج هذه الدراسة، فيمكن إجمالها في العناصر التالية:

١ – إنَّ المعاني اللغوية والاصطلاحية والتي دارت حول مفهوم النسبية في العربية تتوافق مع أسس النظرية فالنسبية في زمن الأفعال مثلاً تعني: أن القيم الدلالية الزمنية في الصيغ الفعلية غير ثابتة وغير حقيقية، تختلف قيمها الزمنية باختلاف رؤى الأفراد وتصوراتهم الفكرية.

٢– تتضح هوية مفهوم النظرية النسبية عند ابن جني في معرض حديثه عن وظيفة اللغة، في تعبيرها عن أغراض ورؤية كل قوم لعالمهم الخارجي. ضمن إطار البيئة والمجتمع. فاللغة تختلف من مجتمع لآخر، وهذا يعني اختلاف في طريقة التفكير.

٣ – ومما هو جدير بالذكر أن ماهية النظرية النسبية تتضح في المفهوم الذي يقدمه ابن جني، فقوله: "حد اللغة أصوات"؛ إذ إنه ليس هناك علاقة قصدية لزومية بين الرموز الصوتية والأغراض التي يُعبَّر عنها، في قوله: "عن أغراضهم" إذ لو كانت هناك مثل هذه العلاقة لتشابه النطق عند الجميع، فالواقع يكذب ذلك؛ والأغراض والمثيرات متفاوتة عند الجميع، وبالتالي طرائق التعبير عنها مختلفة لاختلاف الرؤية. ويؤيد ذلك ما يذكره الدكتور محمود شاكر بقوله

٤- إنَّ ابن جني كان محقاً عندما جعل الإحساس وحدة مشتركة بين الجميع. فالأغراض مثيرات تسقط على الحواس، ويتم ترجمتها وتأويلها وتصنيفها، في الذاكرة وفق عمليات عقلية محضة، والتعبير عنها بالطريقة التي يراها الأفراد وفق عادات نطقية ولغوية تتوافق مع رؤية الفرد وإدراكه، وهذه الرؤية تتفق مع رؤية بنيامين وورف عندما أشار إلى أن اللغة تمارس نوعا من الدكتاتورية على الإدراك الحسي، وأن البنية اللغوية تتشكل في الفرد من محيطه الذي ينظم له تصوره للعالم.

٥ - تجلت الرؤية النسبية اللغوية عند السيرافي في دفاعه عن علم المنطق عند العرب، فلا يمكن أن يكون العرب قد أخذوا علم المنطق من يونان، فالعادات اللغوية التي ترافق المنطق اليوناني، لا شك أنها تبتعد كليا عن فهم العربي؛ ومن هنا فاليوناني يقدم تصورا مختلفا كليا عن الفهم الذي يمكن أن يقدمه العربي عن المنطق، فهو يفهم منطقه بطريقة تختلف عن فهم العربي، والعربي يقدم وفق عاداته اللغوية تصورا آخر للمنطق يتوافق وعالمه الخاص به.

٦- يرى ابن حزم أنَّه لا تصورات ذهنية بغير ألفاظ أو معان، فالألفاظ_ في حد ذاتها_ لا يعتد بها وليست ذات قيمة إذا لم تمثل التصورات الذهنية. والتصورات الذهنية ما هي إلا خيالات إذا لم تحيها اللغة، وتحقق وجودها الواقعي. ولهذا يرى أنَّ اللغة هي المرآة التي تنعكس عليها مثيرات العالم الواقعي، وهي لا تقدم رؤى حقيقة عن الواقع بقدر ما هي صورة أخرى، مشهد آخر، تشكيل جديد، ليس بينها وبين الواقع الحقيقي أي رابط، وهذا بدورة يظهر أثرة في الأنظمة النحوية التي تحقق هذا التصور، وتلك الانطباعات.

٧- يرى الجرجاني أنَّ المعاني الذهنية صورة أخرى للواقع، واقع آخر بصورة مثالية ندركه، ولكن لا نفهم كنهه إلا بالألفاظ، ولا يمكن أن يعبر اللفظ عن شيء آخر غير الذي يفكر فيه الإنسان أو ويراه أو يسمعه، فهو يفكر بما يرى، ويصوغ الألفاظ ويصنعها وفق رؤيته للعالم الذي يعيشه والواقع الذي يحياه، فالألفاظ صياغة وصناعة ذهنية خالصة، تنسج وتصاغ مفاصلها في الذهن، قبل أن تكون أحداثا كلامية، تفكر فيها كغيرها من الصناعات.

٨- أمَّا الإمام الغزالي، فقد ربط بين اللغة والفكر، وجعلهما بحد يستحيل الفصل بينهما، فالمنظومة اللغوية التي تتمثل بالتركيب النحوي هو الذي يصيّر الفكر إلى الوجود الخارجي، ليبث فيه الحياة، والفِكْر لا يتحقق ولا يحيا إلا باللغة لكي تخرجه من خفائه، كما أنَّ اللغة محتاجة إلى الفكر كي تُعَبِّر عن موجودات وأغراض هذا العالم بوضوح، فاللغة تتشكل وتنسجم مع حيثيات ومثيرات هذا العالم وفق رؤية الفرد له. وعليه يمكن القول: إنَّ اللغة تعكس نمط الوجود والحضارة والتاريخ، فتدل فيه المصادر والمفاهيم المنطوية عليها على وحدانية الانبثاق وانسجام المظاهر، وتدل الألفاظ الحاصلة من المصادر على تغير نمطية اللغة تبعا لتغير التفكير.

٩- قام ابن خلدون بإلغاء رؤية الحتمية اللغوية، والقيود التي تفرضها اللغة على الفكر، وتنبه من جانب آخر، إلى دور اللغة في نقل الأفكار والمعاني الذهنية، فعملية التفكير عنده يلزمها القوالب للمعاني، وهذا القوالب والأنماط النحوية ما هي إلا تصوير للواقع والعالم حسب ما يراه الفرد، إنها رؤية للواقع بالقوالب، رؤية للظاهرة نفسها بقوالب مختلفة، فاختلاف القوالب لا يعني مجرد اختلاف في النظام النحوي التركيبي فقط، وإنَّما يعني اختلاف في القوالب

الذهنية كذلك؛ ولهذا تختلف تصورات الإنسان عن العالم الخارجي، تبعا لاختلاف القوالب اللغوية.

المراجع والمصادر العربية والأجنبية

١- الآلوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني(١٤١٥ه) روح المعاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢- الأزهري، محمد بن أحمد (٢٠٠١م) تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، دار إحياء التراث، بيروت.

٣- الأصفهاني، أبو القاسم، الحسين بن محمد (٢٠٠٧م) المفردات في غريب القرآن الكريم، تحقيق: محمد الكيلاني، مراجعة: محمد خليل عيتاني، ط٥، دار المعرفة، بيروت.

٤ - التوحيدي، أبو حيان، علي بن محمد بن العباس (١٣٢٤هـ) الإمتاع والمؤانسة، ط١، المكتبة العصرية، بيروت.

٥- ابن تيمية، أبو العباس، أحمد بن عبد الحليم (١٩٩٥م) مجموع الفتاوى، ط٢، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية.

٦- الجرجاني، أبو بكر، عبد الرحمن بن محمد (١٩٩٢م) أسرار البلاغة، تعليق: د محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

٧- الجرجاني، أبو بكر، عبد الرحمن بن محمد (١٩٩٢م) دلائل الإعجاز، تعليق: د محمود محمد شاكر، ط٣، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

٨- الجرجاني، علي بن محمد بن علي (١٤٠٥هـ) التعريفات، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت.

٩- جرين، جوديث (١٩٩٢م) التفكير واللغة، ترجمة: عبد الرحيم جبر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٠ – ابن جني، أبو الفتح عثمان (١٩٥٢م) الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، مصر، دار الكتب العلمية.

١١– ابن حزم، أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد (٢٠٠٤م) الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: محمد محمد تامر، ط١٠، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢– ابن حزم، أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد (١٩٨٧م) الرسائل، تحقيق: إحسان عباس، ط٢٠، نشر المؤسسة العربية للنشر، بيروت.

١٣– حماد، أحمد عبد الرحمن (١٩٨٥م) العلاقة بين اللغة والفكر، درا المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

١٤– حمد، عبد الرحمن حامد (٢٠٠٠م) الفرضية الحتمية اللغوية واللغة العربية، مجلة عالم الفكر، مج٢٨، ع٣.

١٥– ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد(٢٠٠٤م) مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، ط١، دار يعرب للدراسات والنشر، اتحاد مكتبات الجامعات المصرية.

١٦– الخولي، محمد علي (١٩٨٢م) معجم اللغة النظري، مكتبة لبنان، بيروت.

١٧– الزبيدي، محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، الرياض، دار الهداية، (د. ط) (د. ت).

١٨– السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر (٢٠١٠م) الشمائل الشريفة، دار طائر العلم، تحقيق: حسن عبيد باحبيشي.

١٩– الشافعي، ابن حجر، أحمد بن علي (١٣٧٩هـ) فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، دار المعرفة– بيروت.

٢٠ – شاكر، محمود محمد (١٩٤٦م) اللغة والمجتمع، مجموعة مقالات، مجلة الكتاب، مج٢.

٢١- عبد السلام، سعد (٢٠١٧م) أصول فلسفة اللغة عند ابن حزم الظاهري، مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية، مركز جيل البحث العلمي _ الجزائر، ع٢٨.

٢٢- العكيلي، عدي عبده عبيد (٢٠١٤م) مقال الإحساس والإدراك والانتباه، كلية التربية الأساسية، جامعة بابل_ العراق، الشبكة العنكبوتية، رابط: http://www.uobabylon.edu.iq.

٢٣- العيني، أبو محمد، محمود بن أحمد (٢٠١١م) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي- بيروت، (د.ت).

٢٤- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (١٩٩٨م) المنخول من تعليقات الأصول، تحقيق: الدكتور محمد حسن هيتو، ط٣، دار الفكر المعاصر- بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق – سورية.

٢٥- الكاتبي، نجم الدين علي القزويني(١٤٢٦ه) تحرير القواعد المنطقية في شرح الرسالة الشمسية، دار بيدار، قم _ إيران.

٢٦- كتاني، محمد (٢٠١٠م) إشكالية اللغة والفكر، المملكة المغربية، وزارة الثقافة والاتصال، الشبكة العنكبوتية، الرابط: http://www.minculture.gov.ma.

٢٧- اللغة العربية والفكر (١٩٩٢م) ارتباط اللغة بالفكر، جريدة الأهرام المصرية، ١٩٩٢/١٢/٢٤م.

٢٨- مجمع اللغة العربية بالقاهرة(٢٠٠٤م) المعجم الوسيط، ط٤، مكتبة الشروق الدولية.

٢٩- محسب، محيي الدين (١٩٩٧م) اللغة والفكر والعالم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٩٧م.

٣٠- يانا، ثاني بابيو (٢٠١٣م) علاقة اللغة بالفكر بين اللغويين العرب الأقدمين والدرس اللغوي الحديث، مجلة جامعة بخت الرضا العلمية، ع٦.

المراجع الأجنبية

٣١- Carrol, J: Language, Thought and Reality. [REVIEW]Marvin K. Opler, Philosophy and Phenomenological Research ١٧:٤١٤,١٩٥٦. p.٢٣ .

٣٢ - Dan I. Slobin, Psycholinguistics, Glenview, Illinois: Scott Foresman and Co.١٩٦١, p١٠٠

٣٣ -John B. Carroll, Language and Thought, Englewood Cliffs, New Jersey: Prentice Hall Inc. ١٩٦٤, p. ٧٦

٣٤ -Ronald W. Langacker, Language and its Structure, San Diego: Harcourt Brace Jovanovich, Publishers, Second Edition, ١٩٧٣, p. ٣٦

٣٥ -Kramsky; Jiri: The Phoneme, ١٩٧٤, p ٤١.